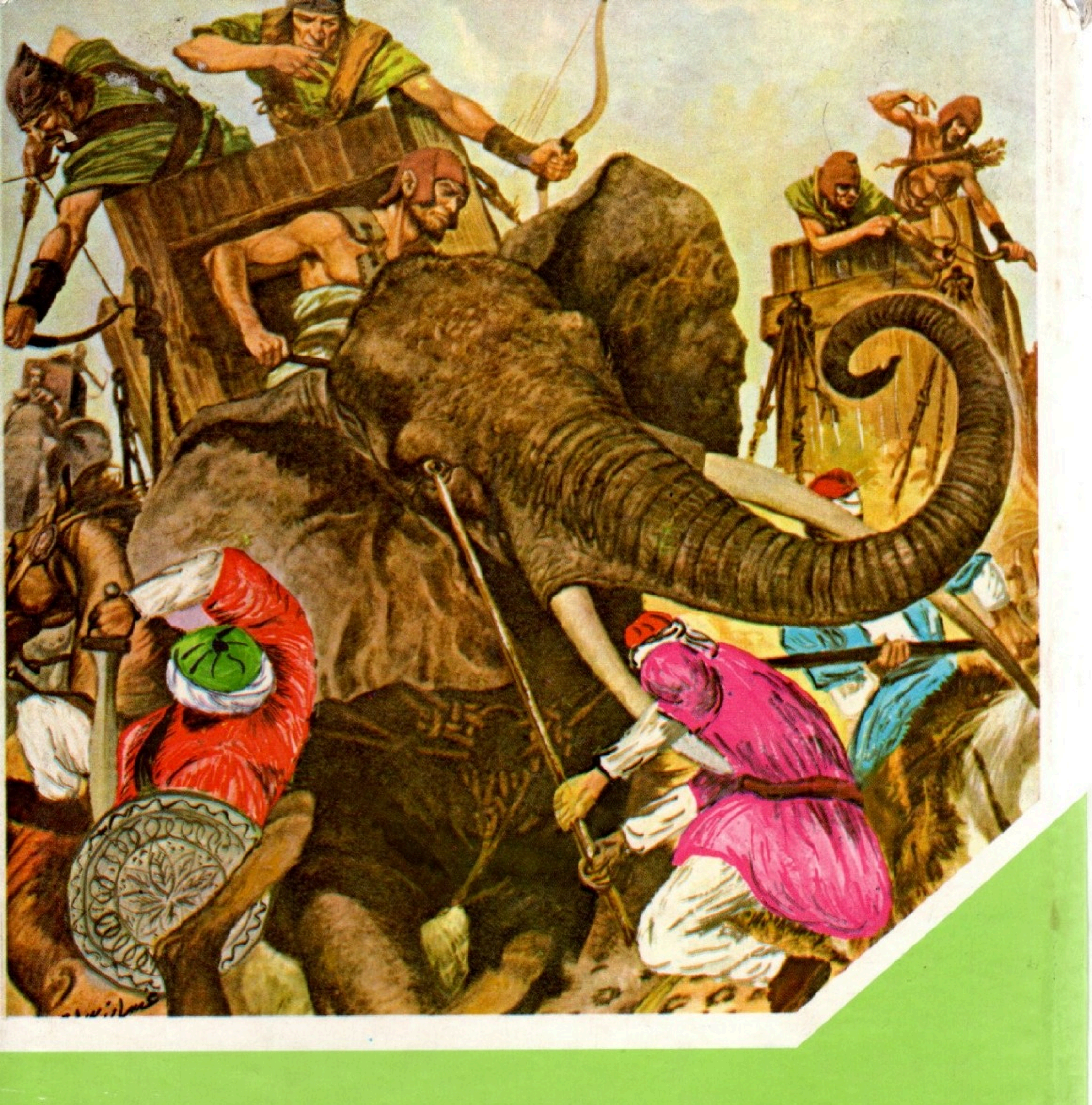


معركة القادسية

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش



معركة القادسـيـة

حروب خالد في العراق
(استطلاع وجس نبض)

لم تكنِ القادسيَّةُ سوى حلقةٍ وُسطى في سلسلةٍ من المعاركِ الطاحنةِ التي وقفَ فيها العربُ والفُرْسُ وجهاً لِوَجْهٍ في صراعٍ دمويٍّ على الحياةِ.

ومع ذلك، فإنّها، أي معركةَ القادسيَّةِ، تُعدُّ أهمَّ معركةٍ خاضَتْها الأمَّتانِ العظيمتانِ في تاريخِ صراعِهما المرير القاسي. وترجعُ أهميَّتُها هذه إلى عِدَّةِ أمور:

(١) أوّلُها: أنها كانتْ أضخمَ المعاركِ من حيثُ عددُ الجنودِ المشتركينَ فيها من كِلا الجانبينِ (العرب ٣٦ ألفاً، والفرس ١٢٠ ألفاً).

(٢) الثاني: تصميمُ الجانبينِ على جَعْلِها المعركةَ الحاسمةَ التي يتقرَّرُ فيها مصيرُ كلٍ من الأمَّتينِ المتنازعتينِ.

(٣) الثالثُ: أن حجم الهزيمةِ الفارسيةِ فيها كان كبيراً إلى الحدِّ الذي فتح الطريقَ أمامَ العربِ لتحريرِ كاملِ العراقِ بغيرِ جهدٍ عسكريٍ يُذْكَرُ. بل إن (المدائنَ) العاصمةَ الفارسيَةَ نفسَها سقطتْ بعدَ القادسيّةِ بأشهرٍ قليلةٍ بغيرِ قتالٍ.

كل ذلك يجعلُ الحديثَ عن هذهِ المعركةِ الكُبرى ناقصاً أو مبتوراً إذا لم نبدأ القصةَ من أوّلها:

المثنّى بن حارثة الشيباني

(جهد فردي مشكور)

على امتداد ضفافِ الفراتِ الغربيَّةِ، ومن حدودِ الشامِ إلى أسفلِ العراقِ، كانت تمتدُّ منازلُ قبيلةٍ من أشهرِ القبائلِ العربيةِ، هي قبيلةُ شيبانَ.

وكانَ من فِتيانِ هذه القبيـلة العريقةِ فتًى صادقُ العروبةِ، عالي الهمَّةِ، اسمُهُ المُثَنَّى بنُ حارِثةَ الشَّيْبانيُّ.

كان المثنى منذُ جاهليتِهِ يشعرُ بالألمِ يَعْصِرُ فؤادَهُ كلما نظرَ إلى واقعِ إخوانِهِ عربِ العراقِ الخاضعينَ في

ذلٍّ واستكانَةٍ إلى السيطرةِ الفارسيةِ. وقضى شبابَهُ وذِكْرَياتِهِ معركةِ ذي قارٍ التي انتصر فيها العربُ على الفرسِ تراوِدُ مُخَيِّلَتَهُ، وتغذّي طموحَهُ إلى تحريرِ العراقِ من نِيْرِ العُبودِّيةِ، وتطهيرِهِ من الفُرْسِ الغاصِبينَ المُحْتَلِّينَ. ولكنْ كيفَ السبيلُ إلى ذلك والعربُ قبائلُ مُتَفَرِّقَةٌ، لا يجمعُها رأيٌ، ولا يوحِّدُها هدفٌ، قد اشتغلتْ عن عَدُوِّها الحقيقيِّ بنزاعاتِها القَبَلِيَّةِ، وخصوماتِها العَصَبِيَّةِ التي كانَ العدوُّ الفارسيُّ يُؤَجِّجُهَا كلما خَمَدَتْ، ويزيدُ في أوارِها حيثُما اشْتَعَلَتْ، لتبقى له السَّيْطَرةُ، ويَسْتَتِبَّ له الأمْرُ؟.

وظَهرَ الإسلامُ في مكَّةَ. وكان أولَّ أمرِهِ ضعيفاً، ولكنَّهُ قَويَ بعد هجْرَةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم وأصحابِهِ إلى يَثْرِبَ. وغدا للعربِ بهذهِ الهجرةِ دولةٌ

حقيقيةٌ، لها قائدٌ مُلْهَمٌ هو الرسولُ الكريمُ، وعاصمةٌ لا تخضعُ لسلطانٍ أجنبيٍّ هي المدينةُ المنورةُ. ورأى المثنى في هذا الدِّينِ الجديد الفكرةَ التي كانت ضروريَّةً لجمعِ كلمةِ العربِ، ورأى في دَوْلةِ الرسولِ الفتيةِ السَّنَدَ الذي كان يحلم بِهِ من أجلِ تحقيقِ آمالِهِ القوميَّةِ البعيدةِ.

وهكذا يَفِدُ المُثنى إلى المدينةِ مَعَ وَفْدٍ من قومِهِ لِيُعْلِنُوا إسلامَهُم عامَ تسعةٍ للهجرةِ، وتمتزجُ الدهشةُ في نفسِهِ بالسعادةِ حينَ يشرحُ للرسولِ الكريمِ أحوالَ العراقِ فلا يجدُ عندَهُ الأُذُنَ الصاغية فحسب، بل يَجِدُ التَّطابُقَ التامَّ بينَهما في الفِكرِ والطموحاتِ فيما يتعلَّقُ بهذهِ البُقْعةِ الحسّاسةِ من الأرض العربيةِ.

والظاهرُ أن الظروفَ يومئذٍ لم تكنْ مُواتيةً للبدءِ بتحقيقِ أحلامِ المثنى، فرجع إلى منازلِ قومِهِ ليقضيَ

عامَيْنِ في التَّرَقُّبِ والانتظارِ، ودراسةِ أحوالِ العدوِّ في العراقِ من الناحيتينِ السِّياسِيةِ والعَسكَريةِ.

و يُتَوَفّى الرسولُ الكريمُ عامَ /١١/ للهجرةِ. ويخلفُهُ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ الذي لم تمنعْهُ حركةُ الرِّدَّةِ من تَوْجيهِ جَيْشِ أسامةَ نحوَ الشامِ إتماماً لما بَدَأهُ الرسولُ قبلَ وفاتِهِ. و يرى المثنى أن الوقْتَ قد أزِفَ لفتحِ الجَبْهةِ العِراقيةِ، فيقدمُ على أبي بكرٍ، ويحاولُ إقناعَهُ بفكرتِهِ. وعندما يَجِدُ هذا مشغولاً بحروبِ الردةِ يعرِضُ عليه أن يَتَكَفَّلَ هو وقومُهُ بالقيامِ بالأمرِ ريثما تَفْرُغُ له الخلافةُ، وتوفِّرُ عليه جهودَها.

ولا بدَّ أن يكونَ المثنى قد شَرَحَ للخليفةِ الفائدةَ الإستراتيجيَّةَ التي يمكنُ الحصولُ عليها من فتحِ الجبهةِ العراقيةِ؛ فإنَّ مناوشةَ الجيوشِ الفارسيةِ على ضِفافِ الفُراتِ ستمنعُها من مدِّ يدِ العَوْنِ إلى القبائلِ

المُرْتَدَّةِ في نجدٍ واليمامةِ في حالِ استنجادِ هذهِ القبائلِ بالفرسِ. وبذلك تتوفَّرُ لخالد بنِ الوليدِ حمايةٌ قيِّمةٌ لظهرِهِ تجعلُهُ يتفرَّغُ لحربِ هذه القبائلِ من غيرِ أنْ يخشى خَطَراً يأتي من ورائِهِ، ويتمكنُ من نفوسِ المرتدينَ اليأسُ من أيةِ مساعدةٍ خارجيةٍ كانت. ونحن نستنتجُ هذا من قولِ المُثنى لأبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: يا خليفةَ رسولِ اللهِ، أَمِّرْني على مَنْ قِبَلي مِن قَوْمي أقاتِلْ مَنْ يَلِيْني مِنْ أهل فارسَ، وأكْفِيكَ ناحِيَتي.

ويقتنع أبو بكرٍ بسدادِ رأي المُثنى، فَيُؤَمِّرُهُ على قومِهِ، ويُكَلِفُهُ بمناوشةِ الفُرسِ على ضِفافِ الفراتِ الأسفلِ إلى حينِ الفراغِ من حروب الرِّدَةِ. ويطيرُ المثنى فَرِحاً إلى منازل قومِهِ، فيحشُدُ من فرسانِهم جيشاً يَعُدُّ ثمانية آلافٍ، ثم يَروحُ يُغيرُ بهِ. هو

وأخواه المُعنّى ومسعودٌ، على الحامياتِ الفارسيةِ كَشْكَرَ بينَ الكوفةِ والبصرةِ مرةً، وفي أسفلِ الفراتِ مرةً أخرىٰ. و يَظَلُّ على ذلك عاماً كاملاً إلى أنْ يَفْرُغَ خالدُ بنُ الوليدِ من حروب الرِّدَّةِ في اليمامةِ، و يَتَوَجَّهَ إلى العِراقِ بأمرٍ من أبي بكرٍ، فينضمُّ إليه، و يعمل تحت إمرتِهِ.

هكذا بدأ الصِّدامُ الرهيبُ بين الأمتينِ العظيمتينِ لِيبلغَ ذِرْوَتَهُ في معركةِ القادسيةِ الكُبرى.

ولكنَّ الصورةَ تظلُّ ناقصةً إذا لم نستعرِضْ ما سبقَ القادسيَّةَ من المعاركِ التي قادَها خالدُ بنُ الوليدِ ضدَّ الفُرْسِ بقدرٍ كبيرٍ من البراعةِ والجُرأةِ، تلك المعاركِ التي لم يكُنِ الهَدَفُ منها سوى الاستطلاعِ، وجَسِّ نبضِ العدوِّ، والكشفِ عن مدى سرعةِ

استجابتِهِ، ودراسةِ أساليبه القتاليَّةِ، وأخيراً استدراجِهِ إلى المعركةِ الفاصلةِ. وهذا ما نحنُ فاعلوه في الصفحاتِ الآتيةِ:

تعديل خطة الفتح

كانت خُطَّةُ الفتحِ، كما وَضَعَها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، تَقْضِي بفتحِ الجبهة الشاميَّةِ أولاً، والتزامِ الهدوءِ التامِّ على الجبهةِ العراقيةِ، لأنَّ كلَّ التقديراتِ الأوليةِ كانتْ تُشيرُ إلى أن احتمالاتِ النجاحِ في الشامِ أكبرُ منها في العراقِ لأسبابٍ عديدةٍ:

(١) أولاً: إنَّ حقلَ العَملياتِ في الشامِ قريبٌ جداً من المدينةِ المنورةِ، بعيدٌ جداً من القُسْطنطينيةِ. وهذا يعني خطوطَ إمداداتٍ قصيرةً وسريعةً

للعربِ، وخطوطَ إمداداتٍ طويلةً وبطيئةً للرومِ. على حين ينعكسُ الوضعُ تماماً في العِراقِ حيثُ جعَلَ الفُرسُ عاصمتَهم المدائنَ في قلبِ القُطرِ العراقيِّ (تقع المدائنُ على عِدَّةِ مراحلَ إلى الجنوبِ من مَوْقعِ بغدادَ الحالي).

(٢) ثانياً: كان نصارى الشامِ على خلافٍ مَذْهَبيٍّ حادٍّ مع حُكَّامهم الرومِ البيزنطيينَ. وهذا يجعلُهُم أكثر ترحيباً بالفاتح الجديدِ من نصارى العراقِ الذين ترك لهُم الفرسُ كاملَ حريتِهِم الدينيَّةِ.

(٣) ثالثاً: كان عربُ الشامِ غاضبينَ على هِرَقْلَ الذي قَطَعَ عنهم المُساعداتِ الماليَّةِ التي كانتْ دولةُ الرومِ تدفعها لَهُم لقاء حمايةِ حدودِها من غزواتِ الأعرابِ، مما يُحتملُ معه أن يكونوا

أسرعَ استجابةً إلى التعاونِ مع العَربِ الفاتحينَ من عربِ العراقِ الذين كانوا على وِفاقٍ تامٍّ مع الدولةِ الساسانيَّةِ.

ومع ذلكَ كُلِّهِ فإنَّ الأمورَ سارتْ بغيرِ ما كان مُقدراً لها. ذلك أن الدَّوْلَةَ البيزنطية أبدَتْ ردَّ فعلٍ عنيفاً على حَمْلَةِ أسامةَ لم يكنْ في الحُسبانِ، إذ سارعت إلى حَشدِ جيوشٍ جرَّارةٍ في الشام تَحَسُّباً لكل طارىءٍ، في حينٍ أن الدَّوْلَةَ الساسانيَّةَ كانت بطيئةَ الردِّ على مُناوشاتِ المُثنى بنِ حارِثَةَ على ضِفافِ الفُراتِ. ومن جهةٍ أخرى، فقد أبدى عربُ الشامِ عِناداً لم يكنْ مُتَوَقعاً مِنهُم، ورفضاً لِنِداء الدَّم العربيِّ الذي استجابَ له أكثرُ عَرَبِ العراقِ الذين قاتلوا مع إخوانِهِمُ العربِ المسلمينَ عَصَبِيَّةً للعروبةِ.

كلُّ هذا حملَ الخليفَةَ أبا بكرٍ على تعديلِ خُطَّةِ الفتحِ التي وضعها الرسولُ الكريمُ، فأصدرَ أوامرهُ في مَطْلَعِ العامِ /١٢/ للهجرةِ إلى كلٍّ من خالد بنِ الوليدِ، وعياضِ بنِ غَنْمٍ، بالتوجُّه إلى العراقِ وَبَدء العملياتِ العسكريةِ فيهِ.

وكانت خُطةُ أبي بكرٍ تقضي بمُهاجمةِ العِراقِ من الشِّمالِ والجُنوبِ في وقتٍ واحدٍ، فكتبَ إلى خالدٍ وكان هذا قد فَرَغَ من حُروبِ الردةِ في اليمامةِ ـ يأمُرهُ بالهجوم على أسفلِ العراقِ بادئاً بالأُبُلَّةِ، كما كتب إلى عِياضِ بن غَنْمٍ ـ وكان بين النَّباجِ والحِجازِ ـ يأمُرهُ بمُهاجمةِ العراقِ من أعلاهُ في الشِّمالِ بادئاً بالمُضَيَّحِ التي لا تبعُدُ كثيراً عن مدينةِ ديْرِ الزَّوْرِ الحاليةِ في سوريَةَ. وأمرَ كلا القائدَيْنِ بالمسيرِ نحو الحِيْرَةِ، وأن يَتَولّى القيادةَ العامَّةَ في

الجبهةِ العراقيةِ أسرعُهُما في الوصولِ إليها.

هكذا بدأتْ حروبُ خالدٍ في العراقِ التي سنقدِّمُ لها عرضاً سريعاً فيما يأتي من الصفحات.

يوم ذات السلاسل

(نصر يبشر بالخير)

في عام ١٢ للهجرة قصَدَ خالدٌ الأ بُلَّةَ كما أمرَ أبو بكرٍ، وقد جمعَ من المُتَطَوِّعَةِ ثمانيةَ آلافٍ من ربيعة ومُضَرَ مع ألفَيْنِ كانا مَعَهُ. وكانت الأ بُلَّةُ ـ إلى الشرقِ قليلاً من مكانِ البَصْرَةِ الحاليَّةِ ـ الثَّغْرَ الذي تسيرُ التجارةُ منه إلى الهِنْدِ والسِّنْدِ. وهي أعظمُ ثُغورِ فارِسَ شأناً، وأشدُّها شَوْكَةً. وكان «هُرْمُزُ» أميرَ هذهِ الناحيةِ كلِّها من قِبل الفُرْس.

لما عَلِمَ هُرْمُزُ بمسيرِ خالدٍ إليهِ كتبَ بالخبرِ إلى ملِكِ الفرسِ شِيرى بنِ كِسْرَى. ثم جمعَ جُموعَهُ،

وسارَ بها إلى كاظِمَةَ، وهي على ساحِلِ البحرِ على بُعدِ مرحلتَيْنِ إلى الغَربِ من البَصْرَةِ. وأقامَ هناكَ ينتظرُ خالداً.

وأقبلَ خالدٌ وقد بلغَ جيشُهُ ثمانيةَ عَشَرَ ألفاً بِمنِ انضمَّ إليهِ من جنودِ المُثنىّ بنِ حارثةَ. والتقى الجيشانِ فَخَرَجَ هُرْمُزُ يطلبُ المبارزةَ، فمشىٰ خالدٌ إليه، فالْتَقيا واختَلَفا ضَرْبَتَيْنِ، واحتضَنَهُ خالدٌ، فهجَمَ الفُرْسُ يرِيدونَ قتْلَ خالدٍ واستخلاصَ هُرمُزَ مِن يَدِهِ، ولكنَّ القَعْقَاعَ لم يُمْهِلْهُمْ، وحملَ عَلَيْهم، وهجَمَ المسلمونَ، فانهزَمَ الفُرْسُ أمامَهُم، فطارَدُوهم، ورَكِبُوا أكتافَهُم إلى اللّيلِ. وقُتِلَ هُرْمُزُ، أما أخَواهُ قُباذُ والأنوشجانُ، وكانا أميرينِ على المَيْمَنَةِ والمَيْسَرَةِ، فقدِ انْهَزَما.

يوم الثِّنْي

(مدد متأخر)

لما قرأ أرْدَشيرُ بنُ شِيرى ــ وكان صار ملكاً بعد مَوْتِ أبيهِ شِيرى بن كِسْرَى ــ كتابَ هُرْمُزَ دعا إليهِ أمراء الفُرْسِ، وكان يُدعى قارنَ بنَ قِريانُسَ، وجَعَلَهُ على رأسِ قُوَّةٍ سارتْ مَدَداً لِهُرْمُزَ.

فخرجَ قارنٌ من المَدَائِنِ عاصمةِ الفرسِ، حتى إذا انتهى إلى المَذارِ بلغَتْهُ هَزيمَةُ هُرْمُزَ، وقابَلَهُ المنهزمونَ فضمَّهُم إليه، وأمَّرَ قُباذَ والأنُوشَجانَ على

جناحَيْهِ وكان المثنى وأخوه المُعَنَّى قد أوغلا يُطارِدانِ الفرسَ المهزومينَ، فلما علما بمسير قارنَ رجعا بالخَبرِ إلى خالدٍ، فسار هذا حتى الْتَقى بقارنَ في مكانٍ يُدْعى الثِنْيَ. وخَرَجَ قارنُ يَدْعو إلى البرَازِ، فبرَزَ له خالدٌ وقتلَهُ، ثم قتلَ الأنوشجانَ وقُباذَ، وهُزِمَتْ فارسُ هزيمةً عظيمةً.

يوم الوَلَجة

(عقاب للمتآمرين مع الأجانب)

لما عَلِمَ أردشيرُ بخبرِ هزيمةِ جيشِهِ الثاني في الثِّنْي فَكَّرَ في الاستعانةِ على العربِ بالعربِ، فجَمَعَ مِنْ بكرِ بنِ وائلٍ جماعاتٍ كانت لا تزالُ على ولائِها للفرسِ، وجعلَ عَلَيْهم قائداً منهم، وَوَجَّهَهُم إلى الوَلَجَةِ، وهي مكانٌ في أرضِ كَسْكَرَ. وأرسلَ مَعَهم جيشَيْنِ فارسَّيينِ عظيمينِ، أحدُهُما تحتَ قيادةِ «الأنْدَرْزَغْرِ» والثاني تحتَ قيادةِ «بَهْمَنَ جَاذَوَيْهِ».

والتقى خالدٌ بالجيوشِ الثلاثةِ في الوَلَجَةِ فكَسَرَها. فأمّا الأنْدَرْزَغْرُ فقد قُتِلَ، وأما بَهْمَن جاذَوَيهِ فقد ولّى الأدْبارَ.

يوم أُلَيَّس

(درس آخر للمتآمرين).

غَضِبَتْ قبائلُ بَكْرٍ لما حلَّ بقومِهِم في الوَلَجةِ، فكاتَبُوا الفُرْسَ يَسْتَعْدُونَهُم على خالدٍ. وبلغَ ذلك أردشيرَ فكتبَ إلى بَهْمَن جاذوَيْهِ يأمرُهُ بالمسيرِ بِمَنْ بَقِيَ معهُ إلى أَلَّيْسَ لِيَنْضَمَّ إلى حشودِ قبائلِ بَكْرٍ. ولكن هذا أمَّر على جيشِهِ قائداً آخرَ من الفُرْسِ اسْمُهُ جابانٌ، وأرسلَهُ إلى أَلَّيْسَ، وأوصاهُ ألاَّ يَدْخُلَ مع خالدٍ في حربٍ، وأنْ يشاغِلَهُ إلى أنْ يَلْحَقَ هُوَ بهِ على رأس جيشٍ سَيَسْعى لَدَى الملِكِ في أمرِ تشكيلِهِ.

فلما عَلِمَ خالدٌ بأمرِهِمْ أسرع إليهم. وفاجأهُم قبلَ أن يَصِلَ إليهم بَهْمن جاذَو يْهِ. وكانت معركةٌ هائلةٌ قَتَلَ فيها خالدٌ ألوفاً كثيرةً من الفُرْسِ وحلفائِهم من بكرِ بنِ وائلٍ.

يوم الحيرة

(أول فتح في العراق)

بعدَ هذهِ الانتصاراتِ الباهرَةِ التي حقَّقَها خالدٌ أصبح الطريقُ مفتوحاً أمامهُ إلى الحِيْرَةِ عاصمةِ المَنَاذِرَةِ. فسارَ إليها يُريدُ فَتْحَها، فَمر في طريقِهِ بأمغِيشِيا، وهي مدينَة "لا تَقِلُّ في عُمْرانِها وأهمِيَّتِها عن مدينةِ الحِيْرَةِ، فوجدَ أهلَها قد جَلَوا عنها، وتفَرَّقُوا في القُرى، فأمَرَ بِهَدْمِها وإزالةِ كلِّ شيءٍ كان في حيِّزِهَا. وَغَنِمَ ما كانَ فيها من أموالٍ لم يَتَمَكَّنْ أهلُها من حَمْلِها في عَجَلَتِهِم. وحملَ جنودَه مع

غنائِمِهِم في السُّفنِ، وأخذَ في النَّهرِ شِمالاً نحوَ الحِيرةِ.

وَعَلِمَ (الأزاذْبهِ)، وكان أميرَ الحِيرةِ في ذلك الحينِ، بمسيرِ خالدٍ إليهِ، فتهيَّأ لِحَربِهِ، وقَدَّم ابنَهُ أمامَهُ أن يَسُدَّ قناطرَ الفُراتِ لِيعُوقَ بذلك سيرَ السُّفُنِ إليه. ثم خَرَجَ في إثرِهِ حتى عَسْكَرَ خارجاً من الحِيرةِ.

ومَضى ابنُ الأزاذبهْ لإنفاذِ أمرِ أبيهِ، فقطعَ الماءَ عن النَّهرِ الذي كانتْ فيه سُفُنُ المسلمين، فجَنَحتِ السُفنُ وارتطمتْ بأرضِ النهرِ، فأخذَ الغضبُ من خالدٍ مأخَذَهُ، وأسرعَ على رأسِ مَفْرَزَةٍ نحو ابنِ الأزاذبهْ، ففاجأهُ وجُنْدَهُ على فَمِ نَهرِ العَتيقِ، فاقتتلوا حتى هَزَمَهُم، وقتلَ ابن الأزاذبه، وأعادَ الماء إلى النهرِ،

فعادتِ السفنُ إلى المسيرِ، وبعد قليلٍ وصلَ الجيشُ بالسفنِ، فسارَ بهِ إلى الحِيرةِ.

وتلقّى الأزاذبهْ في ذلك اليوم خبرينِ سيّئَينِ، أوّلُهما موتُ مَلِكِ الفرسِ أرْدَشِيرَ، والثاني مقتلُ ابنِهِ وزحفُ خالدٍ نحوَهُ، فولّى هارباً من غيرِ قتالٍ.

ووصلَ خالدٌ إلى الحِيرةِ فلم يجِدْ عسكراً يُدافعُ عَنها، إلا أقواماً من العربِ تحصَّنوا في قصورِهِم، وأبَوا إلا المناجَزَةَ. فحاصَرَهُم حتى اسْتَنزلَهُم. وطَمِعَ في إسلامِهِم إذ كانوا عَرَباً، فجمعَهُم وقال لهم: وَيْحَكُم! ما أنتُم؟ أعرب؟ فما تَنْقِمُونَ مِن العَرَبِ؟ أم عَجَمٌ؟ فما تَنْقِمُونَ من العَدْلِ والإنصافِ؟ (يحاول إثارةَ نخوتِهم العربيةِ ليدخلُوا في الإسلامِ، ويقولُ لهم: حتى لو لم تكونوا عرباً لوجَبَ أن تقبلوا الإسلامَ. لأنه دينُ العدلِ والإنصافِ).

فقال له عديُّ بنُ عَديٍّ، وكان واحداً من ساداتِهم: بل نحنُ عَرَبٌ عارِبَةٌ. فقال خالد: لو كنتم كما تقولونَ لم تُعادُونا وتكْرَهُوا أمْرَنا. فقال عَدِيٌّ: يَدُلُّكَ على ما نقولُ أنه ليس لنا لسانٌ إلا العربيةُ. فقال خالدٌ: فاختارُوا واحدةً من ثلاثٍ: أن تدخُلُوا في دينِنا، أو الجِزْيَةَ، أو المناجَزَةَ. فقال عديٌّ: بل نُعطيكَ الجزْيَةَ. فقال خالدٌ وقد ساءهُ هذا الاخْتيارُ: تَبّاً لكُمْ!

وصالَحَهُم على ١٩٠ألفَ درهمٍ. ثم أقامَ بالحِيرةِ، وجعلَها مركزَ قيادَتِهِ.

أيام أخر

(معارك لتصفية الجيوب)

ومن الحِيرةِ التي غَدَتْ مَقَرَّ القيادةِ العامةِ للجبهةِ العراقيةِ راحَ خالدٌ يشنُ الغاراتِ الناجحةَ على ما حَوْلَها من القُرى والدَّساكرِ، فيفتحُ بعضَها عَنْوَةً، ويُصالح بعضَها على الجِزيةِ. وكان آخر عملٍ عسكريٍ قامَ بهِ في هذهِ الجبهةِ هو إسراعَهُ إلى فكِّ الحِصارِ الذي كان مَضْروباً على جيشِ عِياضٍ في دُوْمَةِ الجَنْدَلِ.

وبيانُ ذلك أن عياضاً ما كادَ يَتَحَرَّكُ نحو المُضيَّح، كما أمَرهُ أبو بكرٍ، حتى تَألَّبَتْ عليه قبائلُ بَهراءَ وكلبٍ وغَسَّانَ وتنوخَ والضَّجاعِمِ، وحالتْ بينَهُ وبينَ قَصْدِهِ، لأنَّ منازِلَها كانت على طريقِهِ. فأقامَ أمامَ دُومَةِ الجَنْدَلِ لا يَسْتِطيعُ أن يتقدَمَ نحوها، ولا يقدرُ أعداؤُهُ على ردهِ عنها. ودامَ ذلك سنةً فلما يئِس عياضٌ من قُدْرَتِهِ على فكِّ الحِصارِ كتبَ إلى خالدٍ يَسْتَغيثُهُ، فهبَّ هذا إلى إغاثَتِهِ مُسرعاً.

خلّفُ خالدُ بنُ الوليدِ على الحِيرةِ القعقاعَ بنَ عمروٍ، وخرجَ يُريدُ دُومةَ الجندلِ. ولكنَّه بدلاً من أن يسلُكَ إليها طريقاً مباشراً، مضى نحو الشِّمالِ الغربيِّ مُحاذياً نهرَ الفُراتِ، مفتتحاً ما يَمُرُّ به من القُرى والبلادِ حتى بلغَ المُضَيَّح. فأدّى بذلكَ المُهمةَ التي كان على عِياضٍ أنْ يَقومَ بها. ومن

المُضَيِّحِ انعطفَ نحو الجُنوبِ في اتجاهِ دومةِ الجندلِ.
وإنما فعل ذلك لأمرينِ: أولهما أن يُتِمَّ فَتحَ المنطقةِ الواقعةِ غربيَّ الفُراتِ كلِّها، فَيأمَنَ بذلك كلَّ هجومٍ قد يشنه سكانُ هذهِ المنطقةِ على الحيرةِ من خَلفِها، والثاني أن يأتيَ القبائل المحاصِرَةِ لِعِياضٍ من خَلْفِها، فَيَجْعلها محصورَةً بينهُ و بين عِياض.

ولم يَشعرْ أهلُ دُومةِ الجَنْدَلِ إلا وخالدٌ خلفَهُم قد أطبقَ عليهم فَبُهتوا لِهَوْلِ المُفاجأةِ، وحارُوا فيما يصنعونَ بعد غَدَوْا بينَ نارَيْنِ: نارِ عِياضٍ من أمامِهِم، ونارِ خالدِ بنِ الوليدِ من خلفِهِم. واختلفَ زعماؤهُم بينهم، فأنسحبَ بعضُهم، وثَبَتَ آخرون.

وأقبلَ خالدٌ على الذين ثَبَتُوا، فَفَرَّ بعضُهم إلى حِصْنِ دُومةِ الجَنْدَلِ، وأغلقُوا بابَهُ عليهم. وتركُوا خارجَ الحِصْنِ بعضَهم الآخرَ، فقاتلهم حتى أبادهُم

عَنْ بَكْرَةِ أبيهم، ثم طافَ بالحِصْنِ حتى إذا وصل إلى بابِهِ أمرَ بِهِ فاقتُلِعَ، واقتحمَ المسلمونَ على من فيهِ فقتلُوا الرجالَ، وَسَبُوا النساءَ.

عاد خالدٌ بعدَ ذلك إلى الحِيرةِ مَقَرِّ قيادتِهِ العامةِ، وانصرفَ إلى تنظيمِ الإدارةِ في البلادِ التي افتتحَها، إلى أن جاءهُ كتابُ أبي بكرٍ يأمرُهُ أن يَقْسِمَ جَيْشَهُ نِصفَيْنِ، فَيَتْرُكَ النصفَ الأولَ تَحتَ إمرةِ المثنى بنِ حارثةَ و يسلِّمَهُ القيادةَ العامَّةَ، ويمضي بالنصفِ الثاني إلى الشامِ مَدَداً لإخوانِهِ الذين كانوا يقاتِلُونَ الرومَ على ضفافِ اليَرْموكِ.

الجبهة العراقية بعد خالد

بعد أن ودَّعَ المثنى بنُ حارثةَ الشيبانيُّ خالد بنَ الوليدِ في مسيرهِ إلى الشامِ أقامَ بالحيرةِ، ونَظَّم الحامياتِ في المدنِ المُفْتَتَحةِ، وبثَّ جواً في كلِ المِنْطَقَةِ الواقعةِ بينَهُ وبينَ عاصمةِ عدوِّه المدائنِ، فكانَ هؤلاء يوافونَهُ بأدقِّ التفاصيلِ عن حركاتِ العدوِّ العسكريةِ، وعن المنازعاتِ التي كانت قائمةً في البَلاطِ الفارسيِّ.

وجاءتِ الأخبار تُفيد أنَّ الفُرْسَ قد اتَّفَقُوا على تنصيبِ شَهْرِيْرانَ بنِ أرْدَشيرَمَلِكاً على عرشِ فارسَ،

وأنَّ هذا الملكَ الجديدَ وجَّهَ إلى المثنى جيشاً عظيماً يقودُهُ هُرْمزُ جاذو يهِ. فخرجَ المثنى نحوَهُ، وجعلَ على ميمنتِهِ أخَاه المُعَنَّى، وعلى مَيْسَرتِهِ أخاه مسعوداً. وأقامَ ببابِلَ ينتظرُ الجَيْشَ الفارسيَّ.

وفي بابلَ التقى الجيشانِ، فاقتتلُوا قتالاً شديداً. وكان في الجيشِ الفارسيِّ فيلٌ عظيمٌ يُنَفِّرُ خَيْلَ المسلمينَ و يُفَرِّقُها، فصمدَ المثنى نحوَهُ في جَمْعٍ من المسلمين وقتلُوه. وانهزمَ الفرسُ، وتبعَهُم المسلمونَ إلى المدائنِ يقتلونَهُم. ونزلتْ أنباءُ الهزيمةِ بشهريرانَ نزول الصاعقةِ، فمرِضَ من حزنِهِ وماتَ.

عادَ الفُرسُ بعد موتِ شهريرانَ الى خِلافاتِهِمُ المُعتادةِ حولَ وِراثةِ العَرْشِ، ثم اتفقوُ أخيراً على تَوْلِيَةِ إحدى بناتِ كِسرى، ثم عادوا فخلعُوها، وخلفَها على العرشِ سابورُ بنُ شهريرانَ. وبعد

مكائدَ كثيرةٍ استطاعتْ بنتٌ أخرى لكِسرىٰ أن تقتلَ سابورَ وتجلسَ مكانَهُ على العرْشِ.

وترامتْ هذه الأنباء الى المُثنى، فانتهزَها فرصةً، وراحَ يَشُنُّ الغاراتِ المُتلاحقةَ على الفُرسِ، حتى وصلَ في بعضِ غاراتِهِ الى أبوابِ المدائنِ.

ولم يكنْ غَرَضُ المُثنى من هذهِ العملياتِ الفَتْحَ، لأنَّه كانَ يعلمُ جيداً أنَّ جيشَهُ الصغيرَ الذي لم يكنْ يزيدُ على تسعةِ آلافِ مُقاتلٍ هو أعجزُ مِن أنْ يقومَ بهذهِ المُهمَّةِ. ولكنَّه رمى الى إرهابِ العدوِّ، وعدمِ إتاحةِ الفُرصةِ له لِينظمَ صُفوفَهُ. وكانَ مُوقِناً أنَّه متى انتهتْ نِزاعاتُ البَلاطِ الفارسيِّ فسيكونُ موقفُهُ في غايةِ الحَراجةِ. ولهذا كتبَ الى أبي بكرٍ يشرحُ له الوَضْعَ، ويستأذِنُهُ في الاستعانةِ بِمَنْ ظهرتْ توبَتُهُ من أهْلِ الرِّدَّةِ. ولكنَّ ردَّ الخليفةِ

أبطأَ عليهِ. فخَشِيَ، وقدِ انعقدَتْ كلمةُ الفُرسِ على ملكتِهِمُ الجديدةِ، أَنْ يُطوِّقَهُ العدوُّ من الخَلْفِ، فضمَّ إليه حامياتِهِ المُوَزَّعَةَ على المدنِ، وانسحبَ بجيشِهِ الصغيرِ من الحِيْرةِ، فعسكرَ بهِ على حُدودِ الباديةِ بعدَ أَنْ تركَ على شَواطِىءِ الفُراتِ نِقاطَ مُراقبةٍ ترصدُ له حَركاتِ العدوِّ. ثم أنابَ عنه في القيادةِ العامةِ بشيرَ بنَ الخَصاصيّةِ، وذهب هو الى المدينةِ لِيُقْنِعَ أبا بكرٍ بضرورةِ الاستعانةِ بالمُرْتَدِّينَ التائبينَ لِتَقْويةِ الجيشِ العاملِ في العراقِ.

وحينَ وصلَ الى المدينةِ كان أبو بكرٍ مَريضاً قد أشرفَ على الموتِ، ولكنَّه استقبلَهُ واستمعَ إليهِ، وقَنِعَ برأيِهِ، واستدعى عُمرَ بنَ الخطابِ، وهو ولي عَهْدِهِ، وقالَ له: اسمعْ يا عمرُ ما أقولُ لك، ثم اعملْ به. إني لأرجو أَنْ أموتَ مِن يومِي هذا. فإنْ

أنا مُتُّ فلا تُمسِيَنَّ حتى تَنْدُبَ الناسَ مع المُثنى. وإن تَأَخَّرْتُ إلى الليلِ فلا تُصْبِحَنَّ حتى تَنْدُبَ الناسَ معَ المُثنى. ولا تَشْغَلَنَّكُمْ مُصِيبةٌ، وإن عَظُمَتْ، عن أمرِ دِينِكُمْ، ووصيةِ رَبِّكُمْ.

وتُوُفِّيَ أبو بكرٍ في تلكَ الليلةِ، فَرَكَزَ عُمرُ بنُ الخطابِ رايةَ الجِهادِ في صَحْنِ المَسْجدِ قبلَ الفجرِ. وراحَ مُدَّةَ ثلاثةِ أيامٍ يَدْعو الناسَ إلى الانتدابِ والتَّطَوُّعِ، فلم يُلَبِّ دُعاءَهُ أكثرُ من خمسةِ آلافٍ، فوجَّههم الى العراقِ بعدَ أَنْ أَمَّر عليهم أَسبقَهم انتداباً. وهو أبو عُبَيْدِ بنُ مسعودٍ الثَّقَفِيُّ الذي صارَ الآنَ قائداً عاماً للجبهةِ العِراقيةِ.

وعجَّل المُثنى إلى عسكرِهِ، وأبو عُبَيْدٍ بجيشِهِ الصغيرِ في أَثَرِهِ. وصارَ أبو عُبيدٍ يستنفرُ من يمرُّ بهم من العربِ، فأجابَهُ خَلْقٌ كثيرٌ.

مضى المثنى بجيشهِ فأعادَ احتلالَ الحِيْرَةِ بعدَ أن أَمَّنَ ظهرَهُ بجيشِ أبي عُبَيْدٍ الذي لم يَلْبَثْ أن لَحِقَ به بعد قَليلٍ.

يوم النمارق

(أول انتصار للمثنى)

بعد أن تربعَتْ آزَرْ مِيدُخْتُ على العرشِ الفارسيِّ اختارتْ رُسْتَمَ، وهو أحدُ عظماءِ الفرسِ، ليكونَ قائداً عاماً للجيوشِ الفارسيةِ. فكانَ أولَ ما فعلَهُ هذا القائدُ الجديدُ أنه كتبَ إلى رُؤَساءِ الأَقاليمِ العراقيةِ التي أخضعَها العربُ أن يثورُوا بسادَتِهِمُ الجُدُدِ. ثم أرسلَ إلى كلِ إقليمٍ قائداً فارسياً يَتولّى تنظيمَ الثورةِ، وكان من بين هؤلاءِ قائدانِ يُسَمّى أحدهما جابانَ، ويُدعى الآخرُ نَرْسي. واستطاعَ

هذانِ القائدانِ أن يُثيرا فَلاَّحي العراقِ من أعلى الفراتِ إلى أسفلِهِ. وجمعا جنداً عظيماً عَسْكَرا بهِ في مكان يُدعَى النَّمارِقَ قريبٍ من الكوفةِ.

وعلِمَ أبو عُبيدٍ بأمرِهِما، فأرسلَ إليهما المُثنى على رأسِ قُوَّةٍ كبيرةٍ، فالتقى الجَيْشانِ في معركةٍ حاميةٍ انهزمَ فيها الفُرسُ وقائدُهُمُ الأولُ نَرْسي، أما القائدُ الثاني جابانُ فقد أسِرَ. ولكنَّه خدعَ آسِرَهُ. فافتدى نفسَهُ منه بمالٍ أغراهُ به.

يوم السَّقاطيَّة

(أول انتصار لأبي عبيد)

غَضِبَ رُستَمُ القائدُ العامُ للجيوشِ الفارسيةِ على نَرْسِي لانهزامِهِ في معركةِ النمارقِ، وأمَرهُ بالعودةِ إلى كَسْكَرَ للدِّفاعِ عنها، وقال لهُ: هذه مُقاطعتُكَ التي مَنَحكَ إياها ابنُ خالتِكَ كِسْرىٰ، فأَقِمْ بها، واحْمِها من عَدوِّكَ وعدوِّنا. وكُنْ رَجُلاً!.

وفعلَ نِرْسي ما أمرَهُ بهِ رُسْتَمُ. وراحَ المُنْهزِمون من معركةِ النمارقِ ينضمُّون إليه حتى كادَ الجيشُ

الفارسي يعودُ إلى مِثْلِ ضخامتِهِ التي كان عليها قبلَ النمارقِ.

ورأى أبو عبيدٍ أن يُبادِرَ نَرْسِي قبلَ أن ينظِّمَ صُفوفَهُ، فكتبَ هذا إلى رُسْتَمَ يخبرُهُ بمسيرِ أبي عبيدٍ إليه، فأمدهُ بجيشٍ على رأسِهِ قائدٌ يُدعى الجَالِينوسَ. ولكن أبا عُبَيْدٍ عاجَلَ نَرْسِي قبلَ أن يَصِلَه المَدَدُ، والتقى ومعَهُ المثنى بنَرْسِي في السَّقاطِيَّةِ، فاقتتلُوا قِتالاً شديداً. ثم انهزمَ الفُرْسُ، وهربَ قائِدُهُم نَرْسي مرَّةً أخرىٰ.

وأقام أبو عُبَيْدٍ بكَسْكَرَ، وأرسلَ المُثنى وغيرَهُ من القُوّادِ يُغيرونَ على النواحِي، و يطاردون فُلولَ الفرسِ المُنْهزمةَ، وأقبلَ رؤساءُ القُرى يقدِّمونَ الطاعةَ، و يُعلنون خُضوعَهم مرةً ثانيةً للحكمِ العربيِّ، فصالحَهُم أبو عُبيدٍ، وأعاد كتابةَ العهودِ لَهُمْ، ثم

قَفَلَ عائدا إلى الحِيْرَةِ مقرِّ قيادتِهِ وعلى مُقدَّمتِهِ المثنى
ابنُ حارثةَ في تعبئتِهِ.

يوم قُسِّ الناطف

(عِبرة لكل مستبد برأيه)

لما بلغَ الجالينوسَ خبرُ هزيمةِ نَرْسي ارتدَّ إلى المدائنِ هارباً من غيرِ قِتالٍ، فغضبَ رُسْتَمُ غضباً شديداً، وأمرَ بتشكيلِ جيشٍ آخرَ مُدَعّمٍ بالفِيَلَة، وأَمَّرَ عليه أشدَّ قُوّادِ الفُرسِ على العربِ، وهو بَهْمَنْ جاذَوَيْهِ، وقال له: امضِ إلى محاربةِ العربِ، وضُمَّ إليكَ جيشَ الجالينوسِ، واجعلْهُ مُقَدَّمَةً لك. وإنْ عادَ الجالينوس إلى الهربِ فاضربْ عنقَهُ.

وسارَ بَهْمَن من المدائنِ نحو أبي عُبيدٍ الذي

خرجَ من الحِيرةِ، فعسكرَ في مكانٍ يُدعى المِرْوَحَةَ، وجعلَ نهرَ الفراتِ بينَهُ وبينَ عدوِّهِ. وبعث بَهْمَن إلى أبي عُبيدٍ يُخبِّرُهُ: إما أن تعبُروا إلينا، وندعُكُمْ والعبورَ، وإما أن تَدَعُونا نعبرُ إليكُم.

فاختار أبو عُبيدٍ أن يعبرَ هو على الرُّغمِ من مُعارضهِ أركانِ حَرْبِهِ ومستشاريهِ، وقال: لا يكونُ الفرسُ أجرأَ على الموتِ منا. بل نَعْبُرُ إليهم.

وأمر جنودَهُ بالعبورِ، فعبُروا من المروحةِ حيث كانوا مُعَسكرينَ، إلى قُسِّ الناطفِ حيث أقامَ الفرسُ. وكان جندُ المسلمينَ دونَ عَشَرةِ آلافٍ، ومع ذلك ضاقَ بهم المكانُ الذي تركَهُ لهم الفرسُ وراء الجِسْرِ، فلم يكنْ لهم فيهِ مجالٌ للمُناورةِ. ولم يُمْهلهم بَهْمن بعد أن تَمَّ عبورُهُم لينظِّموا تَعْبِئَتَهُمْ، بل أمرَ بشنِ الهجومِ عليهم فورَ إتمام عمليةِ العبورِ.

فهجمَ الفرسُ على العربِ، وفي مُقَدَّمَتِهُمُ الفِيَلَةُ عليها الجَلاجِلُ (الأجراسُ)، فلما رأتْ خيولُ العربِ الفِيَلَةَ، ولم تكنْ قد رَأَتْها من قبلُ، فَزِعَتْ من مَنْظَرِهَا ورنينِ جَلاَجِلِها، ونَفَرَتْ وفَرَّتْ. فلم يَثْبُتْ مِنها إلّا القليلُ. ورشقَ الفرسُ المسلمينَ بالنَبْلِ فقتلُوا منهم خَلْقاً كثيراً.

واشتدَّ الأمرُ بالمسلمينَ، فترجَّلَ أبو عُبيدٍ والناسُ، ومَشَوْا إلى الفُرسِ فاشتبكُوا معهم بالسيوفِ. ولكنَّ الفِيلةَ كانتْ لا تَتَّجِهُ إلى كتيبةٍ عربيةٍ إلّا فَلَّتْها وشَتَّتَتْ رِجالَها، فنادى أبو عُبيدٍ: أحيطوا بالفِيَلَةِ، واقطَعُوا أَحْزِمَتَها، واقْلِبوا عنها أَصْحابَها.

وسارعَ المسلمونَ الى انفاذِ أمرِ قائِدِهم، فما تركُوا فيلاً إلّا حطُّوا رَحْلَهُ، وقتلُوا أصحابَهُ ووَثَبَ أبو عُبيدٍ

على الفيلِ الأبيضِ، فقطعَ حِزامَهُ، فوقع الذين عليه، وضربَ خُرطومَهُ بالسيفِ. ولكنَّ الفيلَ ضربَهُ برجلِهِ فألْقاهُ على الأرضِ، ثم وقفَ فوقَهُ فأَزْهَقَ روحَهُ.

وعلى الرُّغمِ من أنّ المسلمينَ تمكَّنوا من قتلِ الفيلِ بعدَ ذلك واستخلاصِ جُثْمانِ قائدِهم من تحتِ قوائمِهِ، فإن الفوضى دَبَّتْ في صُفوفِهم، وحلَّتِ الهزيمةُ بهم، وارتدُّوا إلى الجِسْرِ يَعْبُرونَهُ هاربينَ. وبادرَ عبدُ الله بنُ مَرْثَدٍ الثَّقَفِيُّ إلى الجِسْرِ فقطعَهُ ليمنعَ الناسَ من الهَرَبِ، وقال: يأيُّها الناسُ، مُوتوا على ما ماتَ عليه أميرُكم أو تظفَرُوا.

وحصرَ الفرسُ المسلمينَ في جِهَةِ الجِسْرِ، فوثبَ بعضُهم إلى الفراتِ مِمَّن لم يستطعِ العُبورَ فَغَرِقَ.

وخَشِيَ المثنى أن تَعُمَّ الفَوْضى، فأخذَ اللِّواءَ

بيدِهِ، ونادى: أيُّها الناسُ، اعبُرواعلى هِينَتِكُمْ ولا تفزَعُوا، إنَّا دونَكُم نَحْميكُم. ولن نتركَ مكانَنا حتى نراكُم على الضِّفَّةِ الأخرى، فلا تُغْرِقوا أنفسَكُم.

وكان الجِسْرُ قدَ أصْلِحَ، فأخذَ المسلمونَ بالعبورِ، فلمّا لم يبقَ أحدٌ غيرُ كتيبةِ المثنى التي بَقِيَتْ لِحمايةِ عمليةِ العُبورِ، عبرَ هذا بها وهو جَرِيحٌ.

فأمّا أهلُ المدينةِ الذين قَدِمُوا مُتطوعينَ مع أبي عُبَيدٍ فقد رَجَعَ بعضُهم إلى المدينةِ، وسار بعضُهم في البَوادي استحياءً مِن الهزيمةِ.

وعادَ المثنى قائداً عامّاً للجبهةِ العراقيةِ بعد مَصْرَعِ أبي عُبيدٍ، فأمرَ بالإنسحابِ من الحِيرةِ خوفاً من تَطويقِ الفرسِ له، وعسكرَ بِمَنْ بَقِيَ معه من جيشه على أطرافِ الباديةِ لِيحميَ ظهرَهُ، وكتبَ بِخَبَرِ الهزيمةِ إلى عمرَ بنِ الخطابِ.

يوم البُوَيْب

(انتقام يشفي الغليل)

بعد أن بلغتِ الهزيمةُ بالمسلمين مَبْلَغَها يومَ قُسِّ الناطفِ ندبَ عمرُ الناسَ إلى القِتالِ تحتَ إمرةِ المُثنى بنِ حارثةَ، فلبّى نداءهُ جريرُ بنُ عبدِ اللهِ وقومُهُ من بني بَجيلةَ، وعِصْمَةُ بـن الحارثِ ورجالٌ من بني صنَبَّةَ. وكتبَ إلى أهلِ الرِّدَّةِ يستنفرُهُم، ثم وجَّه كلَّ من وافاه إلى العراقِ.

وعرفَ رُسْتمُ بهذهِ الأخبارِ، فجمعَ جيشاً عظيماً جعلَ عليه القائدَ «مِهْرانَ الهَمَذانيَّ»، وأمرَهُ أن

يُسرعَ السَّيْرَ إلى لقاءِ المُثنى قبلَ وصولِ الأمدادِ إليهِ.

وعرفَ المثنى مسيرةَ هذا الجيشِ، فأرسلَ الى جريرٍ وعِصْمَةَ ومَنْ أتاه مَدَداً له يُعْلِمُهُم بالخبرِ، و يُواعِدهُمُ مكاناً على شاطىءِ الفُراتِ يُدعى «البُوَيْبَ».

واجتمعَ الجيشانِ بالبُوَيْبِ و بينَهُما النهرُ. فارسلَ مِهْرانُ إلى المثنى يقولُ: إما أن تعبُرَ إلينا، وإما أن نَعْبُرَ إليك. فأجاب المثنى: أعبُرُوا. فعبرَ مِهْرانُ ونزلَ جُنْدِهِ على شاطيءِ الفُراتِ.

وعبَّى المثنى جنودَهُ. وكانَ في رَمَضانَ، فقامَ خطيباً فيهم، وأمرهَمُ أن يُفْطِرُوا لِيَقْوَوْا بالطعامِ على عَدُوِّهِم، فَأَفْطَرُوا.

وأقبلَ الفُرسُ في ثلاثةِ صفوفٍ، مع كل صفٍ

فيلٌ. والمشاةُ أمامَ الفِيَلَةِ. وقال المثنى لأصحابِهِ: إني مُكَبِّرٌ ثلاثاً، فتهيَّؤوا، ثم احمِلُوا على عدوِّكم في الرّابعةِ.

فلما كبَّرَ أول تكبيرةٍ عاجلَهُم الفرسُ. وخالَطُوهم وشدُّوا عليهم، فاختلَّتْ بعضُ صفوفِهم، فأرسلَ إليهم المثنى مَنْ يقولُ لهم: إن الأميرَ يقرأ عليكُم السَّلامَ، و يقولُ لكم: لا تفضَحُوا المسلمين اليومَ. فقالوا: نَعَمْ. واعتدلَتْ صُفوفُهُم.

والتحمَ الجيشانِ، واحتدمَ القِتالُ. وارتفعَ الغُبارُ. وهجمَ المثنى بقلبِ الجيشِ العربيِّ على قلبِ جيشِ الفرسِ الذي كان يقفُ فيه مِهرانُ. فاقتتلَ القلبانِ اقتتالاً شديداً. وكانت الأجنحةُ مشتبكةً بعضُها مع بعضٍ في القتالِ، فلم تستطعْ إحداهُنَّ أن تَنْصُرَ أميرَهَا.

وكانَ المُثنى قد خَشِيَ على جنودِهِ أن يُصيبهَم، إذا قُتِلَ هو، مِثلُ ما أصابَهُم من الخوفِ بعدَ أن قُتل أميرهُم أبو عُبيدٍ يومَ قُسِّ الناطفِ، فقال لهم قبلَ القتالِ: إذا رأيتُمُونا أصِبنا فلا تَدَعُوا ما أَنتم فيه، والزموا مواقفكم، واستمرّوا في القتالِ.

ومع ذلك، فإنه لما أصِيبَ مسعودُ بنُ حارثةَ أخو المُثنى تَضَعْضَعَ مَن كان مَعَهُ من الجنودِ، وكادُوا ينخذلونَ، فصاحَ بهم مسعودٌ وهو جريحٌ: يا مَعاشرَ بَكْرٍ، ارفعوا رايتَكُم رفعكم اللهُ! ولا يَهُولَنَّكم مَصْرَعِي. فَتَثَبَّتَتْ قُلوبُهم، وعادُوا إلى مِثلِ ما كانوا عليه من الحَماسةِ والشِّدةِ.

وأَوْجعَ قلبُ العربِ في قلبِ الفرسِ. وكانَ في قلبِ العربِ جمعٌ عظيمٌ مِن بني النَمرِ وتَغْلِبَ الذين كانوا على النَّصرانينِ، ولكنَّ سَيِّدَهُم أنسَ بنَ هِلالٍ

انضمَّ بِهم إلى المُثنى، وقالَ: نُقاتلُ مع قومِنا. فقَتلَ غلامٌ مِنهم مِهْرانَ قائدَ الفرسِ، واستوى على فرسِهِ. وأخذتِ المُجنِّبات يقتلُ بعضُها بعضاً، والمسلمونَ في القلبِ يَدْعُون لهم بالنصرِ، حتى انهزمَ الفُرسُ وَوَلَّوُا الأَدبارَ.

وسابَقَهم المُثنى إلى الجِسْرِ فسبقَهُم، وقطعَ عليهم طريقَ الانسحابِ. فافترَقوا بشاطيءِ الفُراتِ شِمالاً وجُنوباً، فطاردَتْهم خيولُ العربِ حتى قتلتْهم أجمعينَ.

الإعداد للقادسية

نتيجةً للهزائمِ المتتابعةِ التي مُنِيَ بها الفرسُ ثارَتِ العامَّةُ عِندهم، وطالبَتِ القُوّادَ بعملٍ حاسمٍ تِجاهَ الخَطَرِ العربيِّ الذي كانَ يُهدِّدُ الامبراطوريةَ في مَصِيرِهَا. ورأى القائدانِ الكبيرانِ، وهما رُسْتَمُ والفيرزانُ، أنَّ عملاً حاسماً من هذا النوعِ لا يُمكنُ القيامُ بهِ ما دامَ البَلاطُ الفارسيُّ لا يزالُ غارقاً في مكائِدِهِ وخِلافاتِهِ على العَرْشِ. وكانتْ آزُرمِيدُخْتُ قدْ خُلِعَتْ عن العرشِ، وحلت مكانَها ابنةٌ أخرى من بناتِ كِسرى تدعى «بُورانَ» فقال القائدانِ لَها: لا يستقيمُ أمرُ الفرسِ إلّا بملكٍ ذَكَرٍ من أولادِ

كِسرى يجمعُ كلمتَهُم ويرضَوْنَ بهِ، فابْحثِي عن هذا الوَلَدِ إنْ كانَ قد بَقِيَ من أولادِ كِسرىٰ الذكورِ أحدٌ. وبعد البَحْثِ والتنقيبِ عَثَرُوا على شابٍّ يُدعى يَزْدَجِرْدَ مِن أولادِ شَهْرَيارَ بنِ كِسرىٰ، فأَتَوْا بهِ فَنَصَّبُوهُ مِلِكاً باسمِ يَزْدَجَرْدَ الثالثِ. ورَضِيَ الفرسُ بملكِهِمُ الجديدِ، واطمأنَّتْ بهِ نفوسُهُم، وتَبارى الرؤساءُ في طاعتِهِ ومَعُونتِهِ.

وبلغَ ذلك المثنى بنَ حارثة، ورأى فيه نَذِيرَ خَطَرٍ جديدٍ، لأنَّ الفرسَ بعد أن حَسَمُوا خِلافاتِهِم ووحَّدوا صفوفَهم لا بدَّ أن يَلْتَفِتُوا إلى العربِ، ويَتفرَّغُوا لِقِتالِهم بكلِّ ما يملكونَ من قُوىً هائلةٍ لا قِبَلَ لجيشهِ الصَّغيرِ بها. وزادَ من قلقِ المُثنى أنَّ أكثرَ البلادِ المُفْتَتَحةِ حتى الآن قد نَقَضَتِ العهودَ التي كانتْ بينها وبينَ العربِ، وأعلنَتِ العِصْيانَ عَليهم! إرضاءً للفرسِ الذين كانوا يَخْشَوْنَ سَطْوَتَهُم.

كتب المثنى بكلِ ذلك إلى عُمرَ بنِ الخطّابِ.
وقَبْلَ أن يأتِيَهُ الجوابُ انسحبَ من الحِيرةِ، وسحبَ حامياتِهِ المُتفرِّقَةَ في القُرى، وعَسْكَرَ في ذي قارٍ بعدَ أن أقامَ خطّاً للمراقبةِ يتألّفُ مِن عِدّةِ مراكز متقاربةٍ بحيثُ يرى بعضُها بَعضاً، ويستطيعُ كل مركزٍ أن يَهُبَّ إلى إغاثةِ المركزِ الذي يُجاورُهُ إذا حدثَ ما لم يكن في الحُسْبانِ. وأقامَ في مكانِهِ هذا ينتظرُ أوامرَ الخليفةِ. وحينَ وردَ كتابُ عمرَ لم يكن فيه من الأوامرِ أكثرُ ممّا فعَلَه المثنى بنفسهِ قبلَ أن يعرِفَ رأيَ الخليفةِ.

النفير العام

(لأضربنَّ ملوكَ العجم بملوك العرب)

عمر بن الخطاب

أدركَ عمرُ بنُ الخطابِ أنَّ الحربَ في العِراقِ لن يحسمَها إلا جيشٌ كبيرٌ لا يقِلُّ عن أربعينَ ألفَ مُقاتلٍ، ورأى أنّ سياسةَ التجنيدِ المُتَبَعَةَ حتى الآنَ، والقائمَةَ على الدَعْوةِ إلى التطوُّعِ، لم تستطعْ في أي يوم كان أنْ تُؤَلِّفَ جيشاً يزيدُ على خمسةِ آلافِ رجلٍ. ولهذا عَدَل عن هذه السياسةِ إلى سياسةِ التجنيدِ الإجباريِّ، فأرسلَ في ذي الحجةِ من سنةِ ١٣

للهجرةِ إلى جميعِ عُمّالِهِ علىٰ النواحِي والقبائلِ الأمرَ الآتيَ: «لا تَدَعُوا أحداً له سِلاحٌ أو فَرَسٌ أو نَجْدَةٌ أو رأيٌ إلا انتخبتُمُوه، ثم وجهتُمُوه إليَّ. والعَجَلَ العَجَلَ!»

ورغبةً من عُمَرَ في الإسراعِ بعمليةِ التَّحَشُّدِ أمرَ بأن يُرسَلَ كُلَّ مجندٍ إلى مركَزِ التَّحشدِ الذي يكون أقربَ إليه من غيرِهِ، وهذه المراكزُ هي: مكَّةُ، والمدينةُ، وذو قارٍ حيث كان يُعسكرُ المُثنى.

وخرج عمرُ الى الحجِ في تلكَ السنةِ، فانضمَّ إليه في مكةَ كل المُجَنَّدينَ الذين كانت مَنازلُ قبائِلِهِمْ قريبةً منها. وعندما عادَ إلى المدينةِ كان في انتظارِهِ حشودُ القبائلِ القريبةِ منها. وأما القبائلُ التي كانت منازلُها أقربَ إلى ذي قارٍ فقد بَعَثَتْ بمجنَّدِيْها إلى المُثنى بنِ حارثةَ مُباشرةً.

مؤتمر صِرار

(وأمرهم شورى بينهم. صدق الله العظيم)

وفي أولِ يومٍ من المُحَرَّم ِمن السنةِ الرابعةَ عَشْرَةَ خرجَ عمرُ بمن تحشَدَ لديهِ من الجُنودِ، فعسكرَ بهم على ماء ٍيُدعى صراراً، و يقعُ على طريقِ العراقِ على بُعدِ ثلاثةِ أميالٍ مِن المدينةِ، بَعْدَ أَنْ استخلفَ على المدينةِ عليَّ بنَ أبي طالبٍ، وأرسلَ أمامَهُ على المُقَدَّمَةِ طَلْحَةَ.

ولم يَكُنِ المسلمونَ يعلمونَ بما انتواه عمرُ، فجاء

عُثمانُ فقال لَه: ما الذي تُريدُ؟ فنادى: الصلاةُ جامعةٌ.

فلما اجتمعَ الناسُ للصلاةِ سألَهُم عمرُ رَأْيَهم فيمَن يسيرُ على رأسِ الجيشِ إلى العِراقِ. فاقترحَ العامَّةُ أن يكونَ هو القائدَ، وقالوا لَه: سِرْ، وسِرْ بِنا مَعَكَ.

وافقَ عُمَرُ على اقتراحِهِم مُضْطَراً لأنه لم يَجِدْ عندَهُم رأياً آخرَ. وقال لهم: استعدُّوا، وأَعِدُّوا، فإني سائرٌ بِكُم إلّا أن يَجيءَ رأيٌ هو أفضلُ من ذلك.

ثم جمعَ أَهل الرأيِ وشاوَرَهُم في الأمرِ، فأَجْمَعَ رأيُهُم على ضرورةِ بقائِهِ في المدينةِ، وأن يولِّيَ قيادةَ الجيشِ رجلاً من أصحابِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فإذا انكسرَ أرسلَ غيرَهُ إلى أنْ يَأْذنَ اللهُ

بالنَّصرِ، أما ذهابُهُ هو ففيهِ مُخاطرةٌ جسيمةٌ، لأن في انكسارِهِ إذا وقعَ إنكساراً للأُمَّةِ كلها، وتهديداً لمستقبلِ الإسلامِ برُمَّتِهِ.

اقتنعَ عُمرُ بوجهةِ نظرِهِمْ، فدعا إلى مُؤتَمرٍ عامٍّ، وأرسلَ إلي عليٍّ بالمدينةِ، وإلى طلحةَ الذي ذهبَ بالمُقَدَّمةِ، وطلبَ منهما حضورَ هذا المؤتمرِ.

أعلنَ عُمرُ في هذا المؤتمرِ ما انعقدَ عليه إجماعُ أهلِ الرأْيِ من ضرورةِ بقائِهِ في المدينةِ، وتأميرِ أحدِ الصحابةِ على الجيشِ الذاهبِ إلى العِراقِ، فوافقَ الجميعُ على ذلكَ، فقال عمرُ: فَأَشِيروا عليَّ برجلٍ. فاقترحَ عبدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ اسمَ سَعْدِ بنِ أَبي وَقَّاصٍ، ووافقَهُ على ذلك أصحابُ الرأْيِ، فقَبِلَ عُمرُ برأيِهِمْ، فكتبَ إلى سَعْدٍ، وكان عاملاً له على صَدَقاتِ قبيلةِ هوازنَ، فقدمَ عليهِ، فأَمَّره على حَرْبِ العراقِ.

تحشدات وتنظيمات

فَصَلَ سعدٌ عن المدينةِ في أربعةِ آلاف. وشَيَّعُهم عمرُ من صِرارٍ إلى مكانٍ لا يَبْعدُ كثيراً عن المدينةِ اسمُهُ الأَعْوَصُ. ومن هناكَ وَدعَ سَعْداً، وأَمَرَهُ بالسيرِ، وقال: إذا انتهيْتَ إلى زَرُودَ فانزلْ بِها، وانتخبْ أهلَ النَّجدةِ والبأْسِ من جُنودِكَ فَفَرِّقْهُم فيما حولَكَ من البِقاعِ، وانتظر أْمرِي.

ولم يكدْ سعدٌ يقطعُ بِضْعَ مراحلَ من الطريقِ حتى لَحِقَ به مَدَدٌ من عندِ عُمَرَ بأربعةِ آلافِ مُقاتلٍ، فبلغ جيشُهُ بذلك ثمانية آلافٍ.

وصلَ سعدٌ زرودَ في أوَّلِ الشتاءِ. فنزلَ بِها جاعلاً منها مركزاً لتحشُّداتِهِ، ومنتظراً أوامرَ الخليفةِ. وفي أثناءِ ذلك انتخبَ من بَني تَمِيمٍ والرَّبابِ أربعةَ آلافِ رجلٍ، وانتخبَ من بني أسدٍ ثلاثةَ آلافٍ، فبلغ جيشُهُ بذلك خمسةَ عَشَرَ ألفاً. وكانَ مع المُثنى في العِراقِ عَشَرَةُ آلافٍ. وكان المنتظرُ أن ينضمَّ المُثنى بجيشِهِ إلى سَعْدٍ وهو في زرودَ على الطريقِ إلى الكوفةِ، ولكنَّ المُثنى لم يَسْتَطِعِ المجيءَ بسببِ الجراحِ التي كان أصيبَ بها في معركةِ قُسِّ الناطفِ. وبقيَ في ذي قار ينتظرُ أن يصلَ إليه سعدٌ، ولكنَّ المَنِيَّةَ عاجلتْهُ، فتُوُفِّيَ متأثِّراً بجراحِهِ.

وبناء على أوامرَ صدرَتْ إلى سعدٍ مِن عُمَرَ، بثَّ سعدٌ سبعةَ آلافٍ من جنودِهِ على السُّفوحِ الشِّماليةِ لهضبةِ نجدٍ، وأرسلَ مفرزةً خفيفةً من الخيلِ يبلغ

عددُها خمسَمِائةِ فارسٍ، و يقودُها المُغيرةُ بنُ شُعْبَةَ، إلى نواحِي البصرةِ لتشاغِلَ العدوَّ، وتكونَ غطاءً للتَّحَشُّداتِ التي كانتْ تَجْرِي في زَرُودَ.

وجاء سعداً أَمرُ الخليفةِ بالانتقالِ من زَرودَ إلى شرافِ لإِكمالِ التحشُّداتِ، فانتقلَ سعدٌ إليها، ومنها كتبَ إلى رؤساءِ القبائلِ القريبةِ مِنهُ، فأقبلَ هؤلاءِ مع رِجالِهم، حتى بلغَ عددُ الجيشِ، بعد انضمامِ جيشِ المثنى، بضعةً وثلاثينَ ألفَ مقاتِلٍ.

وكتبَ سعدٌ إلى المُغيرةِ بنِ شُعبةَ يأمرُهُ بالعودةِ بعد أن تَمَّتْ عمليةُ التحشُّدِ دونَ إزعاجٍ من قِبَلِ العَدُوِّ. وبعد انضمامِ المُغيرةِ بمفرزتِهِ، قامَ سعدٌ. بناءً على أوامرِ الخليفةِ، بتنظيمِ جيشِهِ، وتَوْزيع المَهامِّ على رِجالِهِ. فقسمَ جيشَهُ إلى حَضَائرَ، تَتَأَلَّفُ كل حَضِيرَةٍ من عَشَرَةِ رجالٍ، و يَرْئِسُها عَرِيفٌ.

وضمَّ كلَّ عَشْرِ حضائِرِ سَرِيَّةٍ، وجعلَ عليها قائدَ سَرِيَّةٍ، ثم أعطى كلَّ مجموعةِ سرايا رايةً يحملُها أميرٌ، و يكونُ قائداً لمجموعةِ السرايا هذه، ثم ضمَّ كلَّ مجموعةٍ من الرَّاياتِ في كتيبةٍ يقودُها أمير كتيبةٍ.

ثم عَبَّأَ جيْشَهُ فجعلَهُ مُقَدْمَةً، وميمنةً، وميسرةً، وقلباً، وساقةً، ومشاةً، وفرساناً. ثم وزَّع مهامَّ القيادةِ والإدارةِ على الشكل التالي:

١ - سعدُ بنُ أبي وقاصٍ: أميراً عاماً للجيشِ، وأميراً مباشِراً على القَلْبِ.

٢ - خالدُ بنُ عُرْفُطَةَ: نائباً للقائدِ العامِّ.

٣ - زُهْرَةُ بنُ عبدِ الله: أميراً على المُقَدَّمَةِ.

٤ - سَوادُ بنُ مالكٍ: أميراً على الطلائعِ.

٥ - عبدُ الله بنُ المُعْتَمِّ: أميراً على المَيْمَنَةِ.

٦ - شُرَحْبيلُ بنُ السِّمْطِ الكِنْدِيُّ: أميراً على الميسرةِ.

٧ - عاصمُ بنُ عَمْروٍ التميميُّ: أميراً على السّاقةِ.

٨ - حَمَّالُ بنُ مالكٍ الأَسَدِيُّ: أميراً على المُشاةِ.

٩ - عبدُ الله بنُ ذي السَّهْمَيْنِ: أميراً على الفُرْسانِ.

١٠ - حاجِبُ بن زَيْدٍ: لشؤونِ الإسعافِ. ودفْنِ الشُهَداءِ.

١١ - عبدْ الرحمنِ بنُ ربيعةَ الباهِليُّ: قاضياً للجيشِ.

١٢ - سَلْمانُ الفارسيُّ: لشؤونِ الدّعايةِ والرِّيادةِ.

١٣ - هِلالٌ الهَجَرِيُّ: للتَّرْجَمةِ.

١٤ - زيادُ بنُ أبي سُفيانَ: للكتابةِ.

١٥ - أربعةُ رجالٍ لم تُذكرْ أَسماؤهم: أطباء.

فلما فرغَ سعدٌ مِن تنظيم الجيشِ، وأعدَّ لكلِ شيءٍ عُدَّتُهُ، كتبَ بذلك إلى عُمرَ، وطلبَ مِنه الإِذنَ بالتَّحَرُّكِ.

وورَدَ كتابُ عمرَ، فإذا هو يأذنُ لسعدٍ بالتحركِ في يومٍ حدَّدَهُ له، و يأمرُهُ بالتَّوَجُّهِ نحو القادسيةِ، والنزولِ بها، وألا يكونَ مَسِيرُهُ إلا على تَعْبئَةٍ كامِلَةٍ حتى لا يُفاجِئَهُ العدوُّ وهو على غيرِ نِظامٍ، و يطلبُ منهُ أخيراً أَنْ يُرسِلَ إليهِ وصفاً مُفَصَّلاً لِجَغرافِيَّةِ القادسيةِ وما حَوْلَها. وما أمامَها حتى المدائنِ عاصمةِ الفرسِ، ووصفاً آخرَ لحالةِ السُّكانِ في تلكَ المناطقِ من الناحيتينِ النَّفسيةِ والسِّياسِيَّةِ.

تحرَّكَ سعدٌ من شرافِ في اليومِ الذي حدَّدَهُ له عمرُ، ولما وصلَ إلى القادسيةِ عَسْكَرَ بها، واتَّخذَ من قلعةٍ قديمةٍ بها كانتْ تُدعى القَصْرَ مَقَرّاً لقيادتِهِ.

وبعد أن بثَّ جواسِسَهُ في المنطقةِ بينَه وبينَ عدوِّه، وقامَ بدراسةِ مَيْدانِيَّةٍ لجغرافيةِ الأرضِ، كتبَ بتفصيلِ كلِ ذلك كتاباً إلى الخليفةِ كما أمرَهُ من قَبْلُ.

وإليك أهمَّ ما جاء في كتاب سَعْدٍ:

القادسيَّةُ سهلٌ فسيحٌ يحدُّهُ من الشِّمالِ الشرقيِّ نهرٌ يتفرعُ من الفراتِ اسمُهُ «العَتِيقُ»، ومن الجُنوبِ الغربيِّ خَنْدَقٌ طويلٌ يُدعى خندقَ «سابورَ». «وسابورَ» هو اسمُ الملكِ الفارسيِّ الذي كانَ قد حَفَرَ هذا الخندقَ قديماً، وأقامَ عليهِ القلاعَ والحصونَ، ليكونَ خطّاً دفاعِياً يحمي جُنوبَ العراقِ من غاراتِ الأَعرابِ. وعلى يسارِ القادسيةِ من جِهَةِ الشمالِ الغربِي بحرٌ أخضرُ من المراعِي الخِصْبَةِ التي تَنتهي الى مدينةِ الحِيرةِ بينَ طريقَتينِ، فأما أحدُ

الطريقتينِ فيسير على المرتفعاتِ حتى الحِيرةِ مُباشَرَة، وأما الثاني فيحاذِي شاطىء نهرٍ من مُتَفَرِّعاتِ الفُراتِ يُدعى نهرَ الحَضُوضِ، و ينتهي بسالِكِهِ الى الخَوَرْنَقِ إحدى ضَواحِي الحِيرَةِ. وعلى يمينِ القادسيَّةِ الى جِهَةِ الجُنوب الشرقيِّ مُستنقعاتٌ واسعةٌ خلَّفَتْها مياهُ الفَيَضانِ.

إنَّ تقاريرَ جواسِيسِنا تشيرُ الى أنَّ الفرسَ لا يزالون متردِّدِينَ، فلم يُوَجِّهُوا حتى الآنَ جيشاً لمحارَبَتِنا، ولم يُسْنِدوا الى أحدٍ قيادةَ جيشٍ يتولّى التصدِّيَ لنا. ومتى يَبْلُغْنا ذلك نكتبْ بِهِ إليكَ.

وأمّا سُكانُ القُرى العراقيةِ فقد نَقَضُوا عهودَهُم السَّابقةَ معنا، واستعدُّوا لحربِنا، وهم يُحاولونَ استدراجَنا الى أعماقِ رِيفِهِمْ، كما نُحاول نحنُ استدراجُهُم إلينا. والسلام.

ولم يَمْضِ على ذلك إلا أيامٌ قلائل حتى أرسلَ سعدٌ كتاباً ثانياً الى الخليفةِ يُخْبرُهُ فيه بأنَّ الملكَ يَزْدَجِرْدَ الثالثَ قد ولّى رُسْتَمَ حَرْبَهُ، ووَجَّهَهُ نحوه على رأسِ جيشٍ كثيفٍ. فاجابَهُ عُمرُ بكتابٍ يقولُ لَهُ فيه: لا يَكْرُبَنَّك (لا يَحْزُنَنَّك) ما يأتيكَ عَنْهُم، ولا ما يَأْتُونَكَ بِهِ. واستعِنْ باللهِ، وتوكَّلْ عليه. وابعثْ الى المَلِكِ وَفْداً من أهلِ الرَّأْيِ والمَنْظَرِ الحَسَنِ لِدَعْوتِهِ الى الاسلامِ. واكتبْ اليَّ في كلِّ يَوْمٍ.

في المدائن

عرضْنا في الصفحاتِ السابقةِ الأحداثَ التي سبقتْ معركةَ القادسيةِ وكانتِ السبب البعيدَ أو المُباشِرَ لَها، والتي امتَّدتْ على مَدى عامَيْنِ كامِلَيْنِ تقريباً. ولكنها كانتْ في مُجْمَلِها أحداثَ الجانبِ العربيِّ وَحْدَهُ، أما الأحداثُ التي كانتْ تَجْرِي في الجانبِ الآخَرِ، فلم نكنْ نَعرِضُ لها إلا بِمِقْدارِ حاجتِنا الى تفسيرِ تَطَوُّرِ الأحداثِ في الجانبِ العربيِّ. ولكن الصورةَ لن تكونَ كامِلَةً إذا لم نعرفْ ما كانَ يَجري في المدائنِ على الجانبِ الآخَرِ.

إنَّ استعراضَ التاريخِ الفارسي خلالَ العامينِ اللّذَيْنِ سبقا القادسيّةَ لن يكونَ شيئاً مُفيداً جداً لنا. لذا نكتفي منه بأبرزِ الأحداثِ التي كان لَها مساسٌ مُباشِرٌ بما نحن بصدَدِهِ.

فبعدَ موتِ كِسرى أنوشروانَ جلسَ على العرشِ ابنُه شِيرى بنُ كِسرى. وخشِيَ هذا على عرشِهِ من طَمَعِ أقرِبائِهِ، فقتلَ كلَّ ذكرٍ من الأسرةِ المالكةِ مِمَّن ينحدرونَ مِن كِسرى ابنِ قَباذَ، لأن هؤلاءِ كانوا يشكّلون الفَرْعَ الأَقوى من آلِ ساسانَ، والأكثرَ طُموحاً الى العرشِ الفارسيّ. ولم يُعَمَّرْ شِيرى طويلاً، فخلفَهُ على العرشِ ابنُه أَرْدَشِيرُ بنُ شِيرى الذي ماتَ بعد ذلك بقليلٍ ليخلُفَهُ ابنُهْ شَهرِيرانُ بنُ أَرْدَشِيرَ.

وَاسْتَنَّ شَهرِيرانُ سُنّةَ جَدِّهِ، فقتلَ كلَّ ذَكَرٍ من

آلِ ساسانَ يَرْجِعُ بنسبِهِ الى الجدّ الأعلى بَهرام جُور. فلم يبقَ في الأسرةِ الساسانيةِ الحاكمةِ ذَكَرٌ يستطيعُ الجُلوسَ على عرشِ الأكاسِرَةِ إذا ماتَ شَهْرِيرانُ.

ولم يَمْتَدَّ الأَجَلُ بهذا الملكِ السفّاحِ، فقد ماتَ، كما رأينا، إثْرَ الهزيمةِ السّاحقةِ التي مُنِيَ بها جيشُهُ في معركةِ النّمارق. وأرادَ الفرسُ أن يُمَلِّكُوا عليهم ملكاً جديداً فلم يَجِدُوا في الأسرةِ المالكةِ غيرَ النِّساءِ، فرفعُوا الى العرشِ واحدةً من بناتِ كِسرىٰ، ولكنْ سُرعانَ ما خلعُوها ليُجْلِسوا مكانَها سابورَ بنَ شَهْرِيرانَ. ولم يكنْ حظٌّ هذا بأحسن مِنْ حظِّ مَنْ سَبَقَهُ، فإنَّ دسائسَ البَلاطِ انتهتْ بقتلِهِ واجلاسِ ابنةِ كسرى مكانَهُ، وهي المدعوَّةُ بآزَرْمِيْدُخْتَ.

لم تكن آزَرْمِيْدُخْتُ أحسنَ مِن أسلافِها، فقد سارتْ في رَعِيَّتِها سِيرةَ الظُّلمِ والجَوْرِ والطُّغيانِ،

فأفْسحتْ بذلك المجالَ للتآمُرِ عليها والإيقاع بها. وكان الذي فعلَ ذلك ابنةً أخرى من بناتِ كِسرىٰ تُدعى بُوراقَ؛ فقد كتبتْ هذهِ الى أكبرِ قُوّادِ الفرسِ، وهو رُسْتَمُ، وكان حاكماً لمِنطقةِ خُراسانَ، تطلبُ منه المجيءَ الى العاصمةِ «المدائنِ» لِخَلْعِ آزَرْمِيْدُخْتَ، وتخليصِ المملكةِ من شرورِها وآثامِها. فأقبلَ هذا بجيشِهِ، فالتقى بجيشِ الملكةِ الذي أرسلتْهُ لمنعِهِ، فكسرَهُ، وقتلَ قائدَهُ المدعوَّ «سِياوُخُش»، ثم دخلَ المدائنَ وخلعَ آزَرْمِيْدُخْتَ بعد أَنْ فقأَ عَيْنَيْها، ونصَّبَ بُوارقَ مَكانَها.

خِلالَ هذه الأحداثِ المُتلاحقةِ كانتِ الانتصاراتُ العربيةُ تتتابعُ على ضِفافِ الفُراتِ. بل لقد وصلتْ سَرايا خالدٍ، ومِن بَعْدِهِ المثنى بنُ حارثةَ، في بعضِ غاراتِها الى مشارفِ العاصمةِ الفارسيةِ.

وكان لا بدَّ لذلك من أنْ يكونَ لَهُ أثرُهُ القويُّ في الشعبِ الفارسيِّ الذي هبَّ يُعْلِنُ غَضْبَتَهُ على القُوّادِ الفرسِ، و يُطالبُهم بأن يَتَناسَوْا خِلافاتِهم الشخصيَّةَ، و يَتَّحِدُوا في وجهِ الخطرِ العربيِّ الذي كانَ يقرعُ الأبوابَ.

ونزولاً عندَ إرادةِ الشعبِ اجتمعَ أكبرُ قائدينِ من قُوادِ الفرسِ آنذاك، وهما رُسْتَمُ والفيرزانُ. ومَضَيا الى المَلِكَةِ بورانَ فقالا لها: إن أَمْرَ الفرسِ لا يجتمعُ إلا بجلوسِ ذَكرٍ من أولادِ كِسرىٰ على العرشِ. فقالتْ بورانُ: ولكنَّ جميعَ الذكُّورِ قد قتلهم شِيرى كما تعلمانِ، فقال القائدانِ: لا بدَّ أن يكونَ بَقِيَ من نسلِهِ وَلَدٌ أخفَتْهُ أمُّهُ خوفاً عليه من بَطْشِ شِيرى. فاكتبي لنا قائمةً بأسماءِ نِساءِ كِسرىٰ وأبنائِهِ وجَوارِيهم لننظرَ هل كان عندَ إحداهُنَّ ولدٌ من نسلِهِ.

وبعد أن قدَّمتْ لهما القائمةَ المطلوبةَ استدعيا النساءَ والجواريَ المذكورةَ أسماؤهُنَّ فيها، وأَجْرَيا معهُنَّ تحقيقاً دقيقاً الى أَنِ اكتشفا عندَ إحداهُنَّ ولداً يُدعى يَزْدَجِرْدَ من نَسْلِ شَهْرَيارَ ابنِ كِسرىٰ. فنصَّباهُ على العرشِ الفارسيِّ مكانَ بُورانَ. وكان عمرُهُ يومئذٍ إحدى وعِشرينَ سَنَةً.

كان أولَ عملٍ قامَ به يزدجردُ بعدَ جلوسِهِ على العرشِ أَنَّه نصَّبَ رُسْتَمَ قائداً عاماً للجيوشِ الفارسيةِ، وأمرَهُ بالمسيرِ لِقِتالِ العربِ في القادسيةِ. ولكن رُسْتَمَ الذي فَرِحَ بمنصِبِهِ الجديد لم يفرحْ بأمر تكليفِهِ بحربِ العَرَبِ. وقال للملكِ: أيُّها الملكُ، دَعْني من هذهِ المهمةِ. وأرسلْ قائداً غَيْرِي. قال الملكُ: ولماذا؟ هل تَخْشى هؤلاءِ العربَ؟ قال رستمُ: ليس الأمرُ كذلك أيُّها الملكُ. ولكنْ لا أرى

أن يسيرَ القائدُ العامُّ للجيوشِ الفارسيةِ من أجلِ أنَّ بعضَ العربِ أغارُوا على الحدودِ، فقد أَلِفْنا أمثالَ هذِهِ الغارات مِنْ قَبْلُ، وكانتِ الحامياتُ المحِّلَّيةُ كافيةً دائماً لردِّهِمْ على أعقابِهِم.

قال الملكُ: يا رُسْتَمُ، إن الأمرَ أخطرُ مما تَظُنُّ... لقد هزمُوا كلَّ حامياتِ الحدودِ، واستَوْلَوْا على الحِيرةِ عدةَ مَرّاتٍ، بل لقد كسرُوا حتى الآن كلَّ جيشٍ أرْسِلَ لِقتالِهِم.

قال رُسْتَمُ: إذا كانَ لا بدَّ أيُّها الملكُ، فإني أرى أن نُرْسِلَ لِقتالِهِم «الجالينوسَ». وهو قائدٌ على جانبٍ عظيمٍ من المقدرةِ والكَفاءةِ. فإذا انتصرَ عليهم فهذا ما نُريدُ، وإنْ هزمُوه أرسلْنا إليهم غيرَهُ... وهكذا حتى نُنْهِكَ قُواهُمْ.

قال الملكُ: بل لا بدَّ أن تقودَ المعركةَ ضِدَّهُم بنفسِكَ؛ فالشَّعْبُ لا يَثِقُ بغيرِكَ.

قال رُسْتَمُ وقد رأى أنَّه أحْرِجَ: إذنْ دعني أيُّها الملكُ أطاوِلُهم وأناوشُهُم بقواتٍ خفيفةٍ، فلعلَّهُم إذا طالَ عليهم الوقت أَنْ يَمَلُّوا و يَسأَمُوا، فينصرِفُوا بغيرِ قِتالٍ، فنكونَ قد ربحنا الجولةَ بالأَناةِ والمَكيدةِ. ورُبَّ مكيدةٍ أنفعُ مِن بعضِ الظَّفَرِ.

صاحَ الملكُ وقد نَفِدَ صَبْرُهُ: و يحَك يا رستمُ! ما كنتُ أعلمُ أنك جبانٌ الى هذا الحدِّ. واللهِ لا بدَّ أَنْ تسيرَ إليهم بنفسِكَ، أو أَسيرَ أنا إليهم!.

ولم يجد رُسْتَمُ بُدّاً من أنْ يُحنِيَ رأسَهُ خُضوعاً لأَمرِ الملكِ.

* * *

مكثَ رستمُ شهرينِ في مدينةِ سَابَاطَ الواقعةِ جُنوبيَّ المدائنِ يُحَشِّدُ قواتِهِ و يُعِدُّ عتادَهُ، حتى بلغَ جيشُهُ مِائةً وعشرينَ ألفاً بينَ مُشاةٍ وفُرسانٍ ورُماةٍ. وجمعَ فيهِ ثلاثةً وثلاثينَ فيلاً مِن الفيلةِ المُدرَّبَةِ على القِتالِ، والتي تحملُ على ظهورِها الرُّماةَ في صناديقَ خشبيةٍ.

وما فَتِيءَ في أثناءِ ذلكَ يُرْسِلُ الى الملكِ «يَزْدَجِرْدَ» الرسائلَ يطلبُ فيها إعفاءَهُ، و يقترحُ عليه تكليفَ غيرِهِ من القُوّادِ. ولكنّ الملكَ كان يَأْبى في كلِّ مرةٍ. وكان يستعجلُهُ للمسيرِ نحوَ القادسيةِ. فلما يَئِسَ منِ إقناعِ الملكِ بما يُريدُ سارَ بجيشِهِ، وعلى مُقَدَّمَتِهِ الجالينوسُ في أربعينَ ألفَ مُقاتلٍ، وأوصاه ألاّ يشتبكَ معَ العربِ في معركةٍ فاصلةٍ، وعلى ساقته «الفَيرزانُ» في عشرينَ ألفَ مُقاتلٍ. وأما هو فكانَ

على كَوْكَبِ الجَيْشِ (أي قِسْمِهِ الأكْبَرِ) المؤلّفِ من ستينَ ألفَ مقاتلٍ.

وقضى رُسْتَمُ شهرينِ آخَرينَ في مسيرٍ بطيءٍ لم يقطعْ خِلالَهُ سِوى ١٧٠ كيلومتراً فقط؛ وهي المسافةُ بينَ مركزِ تَحَشُّدِهِ في ساباطَ، وبينَ القادسيةِ التي كان ينتظرُهُ فيها سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ.

مفاوضات

ووصل الفرسُ أخيراً فعسكرُوا على الضِّفَّةِ الشَّرقيةِ لنهر العَتيق بإزاء العربِ الذين كانوا على ضفتِهِ الغربيةِ.

وفي صبيحةِ اليومِ التالي خرجَ رُسْتَمُ على فرسِهِ، ومعَهُ أركانُ حربِهِ، لدراسةِ الأرضِ، والاطِّلاعِ على أحوالِ العدوِّ. وكانَ الجيشُ العربيُّ منتشراً في مساحةٍ واسعةٍ على امتدادِ النَّهرِ وكان خلالَ ذلك لا يفتَأ يُراقِبُ القواتِ العربيةَ عَبْرَ النهر، ويتبادلُ الرأيَ مع أركانِ حربِهِ حولَ عددِها وتسليحِها

وتجهيزاتِها، وحولَ قيمةِ المواقعِ التي تحتلُّها مِن الناحية التَعْبَوِيَّةِ.

وبعد أن أنهى رستمُ جولتَهُ التَّفَقُّدِيَّةَ هذهِ. وقفَ على رأسِ الجِسْرِ الذي كانتْ مُقَدَّمَةُ الجيشِ العربيِّ تحتلُّهُ منذُ وصولِها الى القادسيةِ، وطلبَ من الجُنودِ العربِ مقابلةَ قائدِ القِطْعةِ التي يتبعونَها. فأرسلَ «زُهْرَةُ بنُ الحَوِيَّةِ»، وكان هو القائدَ، الى سعدٍ يستأذنُهُ في مُقابلةِ رُسْتَمَ، فلما جاءهُ الإذنُ بذلك ركبَ ومضى الى رأسِ الجسرِ.

قال رستمُ في لهجةٍ ناعمةٍ: أيُّها القائدُ العربيُّ، ما حكايةُ هذهِ الحربِ التي تأبَوْن إلّا أَنْ تُشْعلُوها بينَ أمَّتَيْنا؟ أنتم جيرانُنا، ومنكم من عاشَ داخلَ حدودِنا، فكنا نُحسنُ جِوارَهُم، ونكفُّ الأذى

عنهم، ونسمحُ لهم بالرَّعْيِ في مَراعِينا، وبالتجارةِ بين بُلدانِنا.

قال زهرةُ: صدقتَ أيّها القائدُ! ولكنَّ أمرَنا يختلفُ عن أمرِ تلكَ القبائِلِ العربيةِ التي عاشتْ تحتَ حُكْمِكُم، وغاياتُنا هي غيرَ غاياتِهم. نحن لا نُريدُ الدُّنيا، بل نُريدُ الآخِرَةَ. لم نَجِيءْ إليكم نريدُ أَموالكُم، بل جئناكُم نريدُ إخراجَكُم من الظُّلُماتِ الى النورِ، نريدُ هدايتَكُم الى دينِ الحقِّ والهُدَى... الى الإسلامِ.

قال رستمُ: وما هذا الدينُ الجديدُ؟.

أجابَ زهرةُ: هو أن تشهدَ أنَّه لا إلهَ إلاّ اللهُ، وأنَّ مُحمداً عبدُ اللهِ ورسولُهُ.

قال القائدُ الفارسيُّ مُظهِراً الإعجابَ: هذا عظيمٌ! ثم ماذا؟.

ـــ ثم القضاءُ على عبادةِ الأشخاصِ، وجَعْلُ الناسِ جَميعاً عباداً للهِ وحدَهُ.

ـــ وهذا أعظمُ! ثم ماذا؟.

ـــثم المساواةُ بين الناسِ في الحُقوقِ والواجباتِ.

ـــ وهذا عظيمٌ أيضاً! ولكنْ أَخْبِرْني أيُّها القائدُ العربيُّ، إذا رَضِيتُ بهذا الدينِ الجديدِ الذي تَدْعُوني إليه، ودخلتُ فيه أنا وقَوْمي، فهل تَرْجِعونَ من حيثُ أَتيْتُم؟.

قال زهرةُ في لَهجةٍ صادقةٍ: إيْ واللهِ! ثم لا نَقْربُ بلادَكَم أبداً إلّا في تجارةٍ أو حاجةٍ.

قال رستمُ وهو ساهمٌ يفكِّرُ: صَدَقْتَنِي واللهِ!

ثم لَوَى عِنانَ فَرَسِهِ ومَضى. ورجعَ زهرةُ الى قِطْعَتِهِ.

* * *

قال رستمُ لأركانِ حربِهِ بعد أن خَلا بِهِم في مقرِّ قيادتِهِ: ما رأيُكُم في كلامِ هذا القائدِ العربيِّ؟ لقد لمسْتُ أنا رَنَّةَ الصِّدْقِ فيه. والرأيُ عندي أن نُجيبَهم الى ما يدعونَنا إليه، ونكِفيَ هذه الأُمَّةَ شرَّ حربٍ لا يعلمُ أحدٌ مدى عواقِبِها.

قال الجالينوس: أيُّها القائدُ، إنما بُعِثْنا لِقتالِ هؤلاءِ العربِ، لا لمفاوضتِهِم، والإصغاءِ الى هَذَيَانِهِمْ.

وقال الفيرزانُ قائدُ السَّاقةِ: أيُّها القائدُ، لقد قضيْتَ حياتَكَ في خِدمةِ هذه الدولةِ، وكنتَ دائماً تسيرُ بجيوشِها مِن نصرٍ الى نصرٍ، حتى قَلَّدْتَها أسمىٰ شاراتِ المجدِ والفَخارِ، فلا يَنبغي لك الآنَ أن تلوِّثَ شرفَها بالخضوعِ لهؤلاءِ الحُفاةِ العُراةِ، والنزولِ عند شروطِهِم.

قال رُستَمُ بهدوءٍ: أيُّها القُوادُ، إني كنتُ مثلَكُم فيما مضى، أحتقرُ شأنَ هؤلاءِ العربِ، ولا أرى فيهم غيرَ قبائلَ مُتفرِّقةٍ، لا همَّ لها سوى التنابُذِ والإغارةِ من أجلِ السلب والنهبِ. ولكني اليومَ أرى غيرَ رأيِكُمْ. لقد قضيتُ هذه الأشهر الأربعةَ، منذُ أن كلّفني الملكُ بقتالِهم حتى اليومِ، وأنا أفكِّرُ فيهم، وأَدرس أحوالَهُم في معارِكِهمُ الأخيرةِ معنا، حتى صِرْتُ أَعرفُ من أمورهم أكثرَ مِمّا تعرِفونَ. إن هؤلاءِ العربَ إذا اجتمعُوا كوَّنُوا قوةً رهيبةً تسحقُ كل ما يعترِضُ سبيلَها. وإنّ ذِكرى مَعركةِ ذي قارٍ ليستْ بعيدةٍ عنا. لقدِ انتصرُوا علينا في تلك المعركةِ ولم يحاربْنا فيها مِنهم غيرُ قبيلةٍ واحدةٍ، فكيف بهم إذا اجتمعُوا كلُّهم ضِدَّنا؟ ولقد علمتُم أننا منذُ سنتَيْنِ لم نكَدْ نربحُ منهم معركة واحدةً. وها هم

أولاءِ قد حطّموا منذُ أشهرٍ قليلةٍ أكبرَ جيشٍ جندتْهُ الرومُ حتى اليومِ. لقد سحقُوا جيشَ هِرقلَ على اليَرْموكِ، وقتلُوا منه ثمانين ألفَ محاربٍ في يومٍ واحدٍ، ثم راحوا يجتاحون البِلادَ الشاميةَ، و يطاردون هرقلَ، حتى أَلْقُوْا بهِ الى ما وراءَ قِمَمِ طوروسَ.

قال الفيرزان مُحتجاً: ولكن الجيوشَ الفارسية غيرُ الجيوشِ الرومية.

وقال الجالينوسُ لائماً: إن قائداً ينظرُ الى عدوِّهِ بمثلِ هذا الاحترامِ لا يمكنُهُ أن يربَح المعركةَ ضِدَّهُ.

قال رُسْتَمُ: ليسَ هذا احتراماً ولا إعظاماً، ولكنَّه التقديرُ الصحيحُ للأمورِ، والنظرةُ البعيدةُ التي تَرمِي الى المَصْلحةِ والسلامةِ، لا إلى القتلِ والدمارِ. وإنّي أرى أننا إذا سالَمْنا هؤلاءِ القومَ الى أجَلٍ

معلومٍ. فلا بدَّ أن تَفْتُرَ حماسَتُهم بعدَ أيّامٍ، ولا يبعدُ أن يختلفوا في اقتسامِ ما قد نُعطِيهم، وعندئذٍ تَذْهبُ رِيحُهُم، وتَضْمَحِلُّ قوتُهم، ويُصبحُ القضاءُ عليهم أيسرَ، ونكونُ قد بلغنا بالمكِيدةِ والرأيِ ما لَسْنا ضامنين بلوغَهُ بالحربِ. فاسمعُوا مني، ولا تجعلُوا لِنَزَقِ مَلِكِكُم وغرورِهِ سبيلاً الى العَقْلِ والحِكْمةِ.

قال الفيرزانُ غاضباً: إن الملكَ لم يبعثْنا الى حربِ هؤلاءِ برأيِهِ وحدَهُ، ولكنّه بعثَنا برأيِ الأمَّةِ كلِّها. ولستُ أراكَ يا رستمُ إلا جَبُنْتَ عن لقاءِ العدوِّ فَرُحْتَ تعتذرُ بهذهِ المعاذيرِ.

صاحَ رستمُ غاضباً: أَلِمِثْلي تقولُ هذا يا فيرزانُ؟! قاتلك اللهُ أنتَ ورفاقَكَ! لستُم أكثرَ مِن مجموعةٍ من الحَمْقى المغرورينَ، ولا تكادونَ تختلفونَ

عن هذا الغلامِ الجاهلِ المُتَربِّعِ في غباءٍ على عرشِ الأكاسرةِ.

* * *

وعلى الرُّغمِ من مُعارضةِ قوادِهِ، لم ييأسْ رستمُ من الوصولِ الى حلِّ النِّزاعِ عن طريقِ المُفاوضةِ، فأرسلَ الى سعدٍ في اليومِ التالي يطلبُ منه إرسالَ وفدٍ لإجراءِ مُحادثاتٍ معَهُ.

ورحب سعدٌ بهذا الطَّلَبِ، فأرسلَ إليه وفداً، ثم ثانياً، ثم ثالثاً، ثم رابعاً، على مدى أربعةِ أيامٍ. وكان يَرْمي مِن ذلك الى عِدَّةِ أَهدافٍ:

الأولُ: أَنْ يربَح أكبرَ قَدْرٍ ممكنٍ من الوقتِ ريثَما تصلُ النَّجداتُ القادمةُ إليه من الشامِ، والتي وَعَدهُ بها الخليفةُ عُمَرُ.

الثاني: أنْ يدرسَ نفسيَّة خصمِهِ بعد الذي لمسَهُ مِن تردُّدِهِ وتهيُّبِهِ من المعركةِ.

الثالثُ: أن يُظهرَ لجنودِهِ العربِ أن الفُرْسَ راغبون في الصُّلحِ بسببِ خوفِهم وجُبْنِهِم، فيقوِّي بذلك روحَهُم المعنويَّةَ ويزيلُ من نفوسِ بعضِهِم آخرَ ما بَقيَ فيها من آثارِ التَّهَيُّبِ مِن الفرسِ وقوتِهِم وشِدَّةِ بأسِهِم. وقد كان ذلك واضحاً من حِرْصِ سعدٍ على أن يُذيعَ في جنودِهِ أخبارَ ما كان يَجرِي في هذه المفاوضاتِ من جُرأَةِ المفاوضينَ العربِ على القائدِ الفارسيِّ المشهورِ، ومن احتقارِهِم لمظاهرِ الأُبَّهَةِ والبَذْخِ التي يُحيطُ بها نفسَهُ.

وحدثَ ما كانَ مُتوقَّعاً؛ فإِن هذه المفاوضاتِ لم تنتَهِ الى النتيجةِ التي كان يتوخّاها رُستمُ منها، في حينِ حقَّقتْ كلَّ ما توخاه منها سعدٌ.

وكان آخِرَ ما دارَ في هذه المفاوضاتِ أن المفاوضَ العربيَّ الأخيرَ ــ وهو المُغيرةُ بنُ شُعْبَةَ ــ قال لرستمَ: أنظر في أمرِكَ وأمر قومِكَ. واخترْ واحدةً من ثلاثٍ: إما الإسلامَ، وإما الجزيةَ، وإما القتالَ.

فاستشاطَ رستَمُ غضباً وقالَ: وحقِّ الشمسِ! لا يرتفعُ لكم الصبحُ غداً حتى أقتلَكُم أجمعينَ.

* * *

وهذا لم يبقَ أمامَ الأمَّتينِ العظيمتَينِ إلا السيفُ تحتكمانِ إليه، وإلاّ المعركةُ الفاصلةُ التي تُحَدِّدُ مصيرَ إحداهما، والتي سنتحدثُ عن وقائعها المثيرةِ في الفصل القادمِ.

المعركة:

دامت معركةُ القادسيةِ أربعةَ أيامٍ متتاليةً؛ لم يَكنِ القتالُ يتوقَّفُ فيها إلّا في الساعاتِ المُتأخرةِ من اللّيلِ، ليستأنَفَ في صباحِ اليومِ التالي. بل لقدِ استمرَّ القتالُ في الليلةِ الأخيرةِ، وهي ليلةُ الهريرِ، دونَ توقفٍ حتى ظُهرِ اليومِ الثاني حين انتهتِ المعركةُ بالهزيمة التامَّةِ للفرسِ. و يبدو أنه من العسيرِ وصفُ معركةٍ في مثل هذه الضخامة وصفاً شاملاً، اللّهم إلّا إذا تَتَبَّعْنا وقائِعَها يوماً بيومٍ، وهذا ما نحن فاعلوه:

يوم أرماث

(قتال متوازن)

في مساء يوم الأحد من الأسبوع الأولِ منِ شهرِ مُحَرَّمٍ سنة ١٤ للهجرةِ خرجَ آخرُ وفدٍ عربيٍّ من مُعَسْكَرَ القائدِ الفارسي رُسْتَمَ بنتجةٍ واحدةٍ، هي الحربُ. وعلى ذلك أرسلَ رستَمُ الى سعدٍ يسألُهُ: أَتعبُرون إلينا، أم نعبُرُ إليكم؟ فأجابَهُ سعدٌ: بل تعبُرون إلينا.

وجاءَ الفُرسُ الى الجِسْرِ يريدون العبورَ، فمنعَهُم العربُ. وأرسلَ سعدٌ إليهم يقولُ: لا نردُّ عليكم شيئاً

انتزعْناهُ منكم، فالتَمِسُوا لأنفسِكُم مِعْبَراً آخَرَ. ولم يجدْ رستمُ وسيلةً للعبورِ غيرَ ردمِ النهرِ، فقضى الفرسُ ليلَهُم يرمون في نهرِ العتيقِ التُّرابَ والقَصَبَ والبَراذِعَ حتى ردموهُ وجعلوه طريقاً.

وما كادتْ شمسُ الاثنينِ ترسلُ أولَ خيوطِهَا الذهبيةِ في الأفقِ حتى بدأَتِ القواتُ الفارسيةُ بالعبورِ، فعبر الفرسانُ أولاً، ثم تبعهم المشاةُ، ثم سلاحُ الفِيَلةِ والرُّماةِ.

ولما انتهتْ عمليةُ العبورِ بدأ رستمُ بتعبئةِ جيشِهِ، فجعلَهُ قَلْباً وجناحَينِ وجعل كلَّ قطعةٍ من هذه القِطَعِ الثلاثِ صُفوفاً. المشاةُ في الصفوفِ الأَماميةِ والفرسانُ في الصفوف الخلفيةِ. ثم وزَّعَ الفِيَلَةَ على القلبِ والجَناحَينِ، فوضعَ أمامَ القلبِ ثمانيةَ عَشَرَ فِيلاً، وأمامَ الميمنةِ ثمانيةً، وأمامَ الميسرةِ سبعةً.

ووزَّعَ القياداتِ، فاسندَ الى الجالينوسِ قيادةَ الميمنةِ، وإلى الفيرزانِ قيادةَ الميسرةِ، وإلى بَهْمَن جاذَوَيهِ قيادةَ الفرسانِ. أما هو فقد جعلَ مَقَرَّ قيادتِهِ العامَّةِ خلفَ القلبِ حيثُ أقيمَ له سَرِيرٌ مُرتفعٌ. وقد امتدَّتْ صفوفُ الجيشِ الفارسي على طولِ نهرِ العتيق، فيلغتِ القَنْطرةَ شِمالاً، والمستنقعاتِ جُنوباً. وبذلك وفَّرَ رستمُ لجيشِهِ حِمايةً جيدةً ضدَّ أيِّ حركةِ التفاف قد يفكِّر فيها العدوُّ. وزيادةً في الحَيْطَةِ أقامَ مَفْرَزَةً ضخمةً من الفرسانِ أمامَ القنطرةِ التي يحتلُّها العربُ خوفاً من عمليةِ التفافٍ قد يقومُ بها هؤلاء على جناحِهِ الأيمنِ.

ولم تختلفْ تعبئةُ سعدٍ عن تعبئةِ رستَم، إلا أنَّ سعداً جعلَ الفرسانَ أمامَ المشاةِ. وكذلك مدَّ صفوفَهُ حتى وازتْ صفوفَ الفرسِ، وجعل ظهرَهُ الى خندقِ

سابورَ، فقطع بذلك على عدوِّه سبيلَ الالتفافِ عليه من الخَلْفِ. وأَمَّرَ على القلبِ زُهْرَةَ بنَ عبدِ الله، وعلى الميمنةِ عبدَ الله بنَ المُعْتَمِّ، وعلى الميسرةِ شُرَحْبيل ابنَ السِّمْطِ الكِنْدِيَّ. وعلى الفرسانِ عبدَ الله بنَ ذي السهمَينِ الخَثْعَمِيَّ. أما هو فقد جعلَ مَقَرَّ قيادتِهِ العامّةِ في شُرفةِ القَصْرِ حيث كان يُشرِفُ على الجيشينِ، وكان يرسلُ أوامرَهُ مكتوبةً على رِقاعٍ يحملُها خالدُ بنُ عُرْفُطَةَ الى قِطَعِ الجيشِ المختلفةِ، وإنّما فعلَ سعدٌ ذلك بسببِ دماميلَ ظهرتْ في فَخِذَيْهِ في تلك الأَيامِ جعلتْهُ لا يقدِرُ على الركوبِ ولا الجلوسِ.

ثم أمرَ سعدٌ أن يُقرأَ على الناسِ سورةُ الجهادِ. ثم قالَ لهم: الزمُوا مواقِفَكُم، ولا تحرِّكوا شيئاً حتى تُصَلّوا الظُّهْرَ. فإذا صَلَّيْتم الظهرَ فإني مُكبرٌ تكبيرةً،

فكبِّروا واستعدُّوا، ثم إذا سَمِعْتم الثانيةَ فكبِّروا وأتمّوا عُدَّتكُم، ثم إذا كبَّرْتُ الثالثةَ فكبِّروا ولْينشِّطْ فرسانُكم الناسَ لِيبرُزوا وليطارِدوا، فإذا كبَّرْتُ الرابعةَ فازحفُوا جميعاً حتى تخالِطُوا عدوَّكم، وقولوا: لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ.

واستدعى سعدٌ ذوي الرأيِ والفَضْلِ والنجدةِ، فكان من ذوي الرأيِ: المُغيرةُ وحُذَيْفَةُ وعاصمٌ، ومن أهلِ النجدةِ: طُلَيْحَةُ وقَيْسٌ الأسَدِيُّ وغالبٌ وعمرُو بنُ مَعدِ يْكَرِبَ. ومن الشعراءِ: الشَّمَّاخُ والحُطَيْئَةُ وأَوْسُ بنُ مَغْراء وعَبَدةُ بنُ الطَّبيبِ، وقالَ لهم: انطلِقوا فقومُوا في الناسِ بما يحقُّ عليكم ويحق عليهم عند مواطنِ البأسِ، فأنكم مِن العربِ بالمكانِ الذي أنتم بهِ. أنتم شعراءُ الناسِ وخطباؤهُم وذوو رأيِهم ونجدتِهم وسادتُهم، فسيروا في الناسِ

فذكروهم وحرّضوهُم على القتالِ.

وبعد صلاةِ الظُّهرِ بدأتْ تِلاوةُ سورةِ الجهادِ (الأنفالِ)، فانطلقتْ حناجرُ ثلاثينَ ألفَ رجلٍ تُدوِّي بآياتِ الذِّكْرِ الحكيمِ، وراحتْ أصداء هذا الدَوِيِّ المَهِيبِ تتجاوبُ بينَ الوهادِ والنجادِ، حتى هَشَّتِ النفوسُ، وخالطَ الإيمانُ القلوبَ، واشتهى الناسُ الموتَ في سبيلِ اللهِ. فلما فَرَغَ الناسُ من التِّلاوةِ كبَّرَ سعدٌ، فكبَّرَ الناسُ بعدَهُ واستَعدّوا. وانتظرَ دقائقَ ثم كبَّرَ، فكبَّروا وقد أَتّموا استعدادَهمُ. وانتظرَ دقائقَ أخرى ثم كبَّرَ الثالثة فبرزَ أَهل النجَداتِ لإنشاب القتالِ.

وكان أولَ البارزين غالبُ عبدِالله ِالأَسَدِيُّ، فخرجَ إليه واحدٌ من أشهرِ أبطالِ الفرسِ يُدعى هُرْمُزَ، فأسرَهُ غالبٌ وجاءَ بِهِ الى سعدٍ.

وخرجَ رجلٌ من الفرسِ يُنادي: مَرد ومَرْد، أي: رجلٌ لرجلٍ، فخرجَ إليه عَمْرُو بنُ مَعْدِيْكَرِبَ الزَّبيديُّ فارسُ العربِ المشهورُ، فبارزَهُ، فالتحمَ به، ثم حملَهُ فضربَ بِهِ الارضَ ثم ركعَ فوقَ صدرِهِ فذبحه ثم التفتَ إلى رجالِهِ فقالَ: إن الرجلَ الفارسي لا يُجيدُ الحربَ إلا بالقَوْسِ. فمتى فَقَدَ قوسَهُ كان كالتَيْسِ.

فبينما هو كذلك إذْ خرجَ رجلٌ من الفرسِ، فوقفَ بين الصفَّينِ، ثم أخذَ سهماً من كِنانتِهِ، فوضعَهُ في قوسِهِ، فرمى به عمرَو بنَ مَعدِيكربَ، فأصابَ طرفَ قوسِهِ، فالتفتَ إليه عَمْرُو، وهجمَ عليه، فلما الْتَحَمَ به قبضَ على نِطاقِهِ، ثم حملَهُ فجاء به حتى وصلَ الى أمامِ الصفِّ، فألقاهُ على الأرضِ، واستلَّ سيفَهُ، فَذَبَحَهُ، وهو يقولُ: هكذا فاصنَعُوا بهم أيُّها الرجالُ. فقالَ رجالُهُ وقد بَهَرَهُم ما رَأَوْا

مِنه: يا أبا ثَوْرٍ! ومَنْ يستطيعُ أن يَصنعَ كما تصنعُ ؟!.

وبينما كانَ يَجري هذا في كتيبةِ عَمْرِو بنِ مَعدِيكَرِبَ، كان يجري أمثالُهُ في بقيةِ الكتائِبِ على امتدادِ الصفِّ كلِّهِ.

وكان سعدُ بنُ أبي وَقَّاص يَرْقُبُ كلَّ ذلك من شُرفتِهِ في القصرِ. فلما رأى أنَّ المُبارزاتِ الفرديَّةَ قد وَفَتْ بالغَرَضِ منها في إثارةِ حَماسةِ الجنودِ، وإعدادهِم نفسياً لِلقتالِ، صاحَ مُعلناً البَدْءَ بالزَّحفِ العامِّ: اللهُ أكبرُ!.

فصاحَ المسلمونَ جميعاً في صوتٍ واحدٍ: اللهُ أكبرُ!.

واستلُّوا السُّيوفَ، وأشرَعُوا الرِّماحَ، وبدأَ

الجيشانِ يتقاربانِ، وراحَتِ المسافةُ بينَهما تَقْصُرُ شيئاً فشيئاً حتى تمَّ الإلْتِحامُ، واشتبكَتِ الصفوفُ بكافةِ الأسحلةِ.

* * *

رَكَّزَ الفرسُ هجومَهُم منذُ البَدْءِ في القتالِ على جَناحَي الجيشِ العَربيِّ حيثُ الكتلةُ الكبرى من سلاحِ الفرسانِ، فدفعوا نحوَ هذينِ الجناحَينِ بستةَ عَشَرَ فيلاً عليها ٣٢٠ رامياً بالنُّشابِ. ولما كانت الخيلُ العربيةُ لا تعرِفُ الفِيَلَةَ، ولم تألفْ رُؤيتَها، فقد فَزِعَتْ من مَنظرِها، ونفرتْ وتفرَّقَتْ، واشتغل فرسانُها بِزَجْرِها ورَدِّها الى مواقفِ القتالِ. وانتهزَ رُماةُ الفَرسِ المحمولون على الفِيَلَةِ ذلك، فراحوا يَمْطُرُون فرسانَ العربِ بوابلٍ من سِهامِهِمُ النافذةِ.

فَتَكَتِ الفِيَلَةُ ورماتُها فَتْكاً ذَريعاً بخيَّالةِ

العربِ، حتى بدأَتْ كتائبُ بني بَجِيلَةَ في الميمنةِ بالتَّقَهْقُرِ، وكادَ الاضطرابُ يَدِبُّ في صفوفِهِم.

بدتْ خُطَّةُ رستَمَ واضحةً الآنَ لسعدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ، فقد ظَهَرَ بجلاءٍ أَنْ خصمَهُ بنى خطتَهُ على أساسِ أَنْ تقومَ فِيَلتُهُ في المرحلةِ الأولى بضربِ الفرسانِ العربِ لسحقِهِم وتَشْتِيتِهِم، وفي المرحلةِ الثانيةِ يقومُ الجيشُ الفارسيُّ كلُّه بعمليةِ تطويقٍ للجيشِ العربِي لضربِهِ من ثلاثِ جهاتٍ بعد أَنْ يكونَ الجناحان قد انكشَفا بِفَقْدِ الحمايةِ القويّةِ التي يوفِّرُها لهما سلاحُ الفرسانِ.

ولهذا أسرعَ سعدٌ فاستدعى عاصمَ بنَ عمروٍ التميميَّ، وأمرَهُ أَنْ يتولّى هو ورجالٌ من قبيلتِهِ أمرَ الفِيَلَةِ، كما أصدرَ أمرَهُ الى طُلَيْحَة الأَسَديِّ أَنْ

يذهبَ على رأسِ كتيبتِهِ من فرسانِ بني أَسدٍ لمساعدةِ كتائبِ بَني بَجيلَةَ في مْحِنَتِهِم.

وما كاد رستمُ يعلمُ بأنَّ الأَسديِّينَ هبُّوا لنجدةِ إخوانِهِم البَجَلِيِّينَ حتى أصدرَ أَمرَهُ بتوجيهِ بَقِيَّةِ الفيلةِ، وعددُها سبعةَ عَشَرَ، نحو فرسانِ بني أسدٍ لسحقِهِم قبلَ أَنْ يُحْبِطوا خُطَّتَهُ. ولكنَّ الأَسَدِيِّينَ ثَبَتوا في شجاعةٍ نادرةٍ على الرُّغم مِن الخسائرِ الجسيمةِ التي مُنُوا بها في معركةٍ غيرِ متكافِئَةٍ معَ ثلاثةٍ وثلاثينَ فِيلاً كانت تَبْطِشُ بكلِّ شيءٍ تلقاهُ أمامَها.

أما عاصمٌ فقدِ انطلقَ بِمائةٍ من أمهرِ رُماةِ بني تميمٍ، وبخمسينَ مِمَّن لهم دِرايةٌ بشؤونِ الإِبلِ وتَحميلِها، فقال للرماةِ: قِفوا أنتم أمامَ الفيلةِ، وارْمُوا مَنْ عليها حتى تَشْغَلُوهم عن إخوانِكِم. ثم التفتَ الى

الآخَرينَ فقال لهم: وأما أنتم فاذْهبوا الى الفيلةِ مِن خلفِهَا، وحاوِلوا أن تقطعُوا الأَحْزِمَةَ التي تُثَبِّتُ صناديقَ الرُّماةِ علىٰ ظهورِها، وسأتولّى مع مَنْ معي من الفرسانِ حمايَتَكُم من فرسانِ العدوِّ ومُشاتِهِ.

وانطلقَ الرجالُ لإنفاذِ الأوامرِ، فجثا الرُّماةُ على الرُكَبِ، وراحوا يَرْشُقونَ راكِبي الفيلةِ بسهامِهِم رشقات كثيفةً مُرَكَّزَةً، فقتلُوا بعضَهم، واشتغلَ الباقونَ بالرَّدِّ علىٰ هذا الهجومِ غيرِ المُنتظَرِ، فلم يُمْكِنْهُم التصدِّي للرجالِ الآخَرينَ الذينَ تسلّلوا بسرعةٍ الى خلفِ الفيلةِ، وأخذوا يُقَطِّعون بسيوفِهِم وسكاكِينِهِم أَحزِمَةَ الصناديقِ التي كانتْ تهوي علىٰ الأرضِ بِمنْ فيها مِن الرِّجالِ.

وهجَمَ عاصمُ بنُ عمروٍ بِمَن معه مِن الفرسانِ علىٰ رُماةِ الفرسِ الذينَ هَوَتْ بهم الصناديقُ،

فقتلوهُم عَن بَكْرَةِ أَبِيهِمْ.

لما رأى رستمُ ما حلَّ بفيلتِهِ وراكبيها أمرَ بِسَحْبها مِنَ المعركةِ بعد أَنْ لم يَعُدْ لها فائدةٌ، فارتاحَ بنو أَسَدٍ، وانتظمتْ صُفوفُهم، وردُّوا الفرسَ الى مواقِفِهُم السابقةِ. واستمرَّ القتالُ سِجالاً بقيّةَ النهارِ وشطراً مِن اللّيلِ.

وهكذا انتهى اليومُ الأولُ من أيامِ القادسيةِ دونَ أَنْ يلوحَ النصرُ لأحدٍ مِن الفريقَينِ. وقد كانتْ خسائرُ العربِ فيه جَسيمةً، ولا سيما بنو أسدٍ الذين فَقَدُوا في هذا اليومِ ٥٠٠ شهيدٍ.

يوم أغواث

(خسائر فارسية جسيمة)

بَزَغَتْ شمسُ اليومِ الثاني على الجيشَينِ وقد اصطفّا للقَتالِ. كانتِ الساحةُ بينهما ملآى بِجُثَثِ القتلى من المعسكرَينِ، وبالجَرْحى الذين أشرفُوا على الموتِ فظنَّ رفاقُهُم أنهم موتى فلم يُسْعِفُوهُم.

انهمكتْ فرقةُ الإسعافِ العربيةُ بإخلاءِ الساحةِ من جُثَثِ الشهداءِ، ومن الجرحى المشرفين على الهلاكِ، ونقلتِ الجميعَ الى الخطِّ الثاني في «العُذَيْبِ» على بُعْدِ مِيلَينِ حيث كانتِ النساءُ

يتولَّيْنَ إسعافَ الجرحىٰ، و يشتركْنَ معَ الصِّبيانِ في حَفْرِ القُبورِ لِدَفْنِ الشهداءِ. أما الفرسُ فلم يَهتمُّوا بجثثِ قِتْلاهُم، بل تركوها حيثُ سقطتْ في المَيْدانِ، فكانَ لمنظرِها أسوأ الأَثَرِ في عساكِرِهِمُ الأحياءِ.

كانَ التعبُ بادياً على جنودِ الفريقَينِ جميعاً من أَثرِ المعركةِ الطاحنةِ التي دامتْ بالأمسِ أكثرَ مِن عَشْرِ ساعاتٍ متواصلةٍ. ولعلَّ هذا هو ما حملَ القائدَينِ على عَدَمِ إصدارِ الأمرِ بالزَّحْفِ بِرُغْمِ أنَّ الجيشَينِ كانا في حالةِ تعبئةٍ واستعدادٍ كاملَينِ.

ولاحظ العربُ بارتياحٍ غِيابَ الفِيَلَةِ عن ساحةِ المعركةِ، مما يدلُّ على أَنَّ الفرسَ لم يتمكَّنوا خلالَ الليلِ من إعادةِ تَجهيزِها بصناديقَ جديدةٍ عِوَضاً من تلك التي تحطَّمَتْ بالأمسِ. ولم يَكُنِ العربُ يتوقَّعون

هذا، ولذلك فقد صَنَعوا خلالَ الليّلِ بَراقِعَ وأَقْنِعَةً لها صُوَرٌ وهَيْئات ٌ مُرْعِبَةٌ، وأَلْبَسُوها الإِبلَ لتلعبَ اليومَ الدورَ الذي لَعِبَتْهُ فِيَلَةُ العدوِّ بالأمسِ، وهو إفزاعُ الخيولِ المُعاديةِ وتَشتيتُ فُرسانِها.

ولم تكدْ فرقةُ الإسعافِ والشهداءِ تُنهي عملَها حتى سمعَ الجنودُ أصواتَ تكبيرٍ تتعالى من الجهةِ الشماليةِ، فالتفتُوا لِيَرَوْا ما الخَبَرُ، فإذا سحابةٌ كثيفةٌ من الغُبارِ تملأ الأفُقَ، وترتفعُ الى أَجوازِ الفضاءِ. وما كانتْ إلاّ لحظات ٌ حتى انقشعَ الغبارُ وظهرَ خلفَهُ عَشَرَةُ فرسانٍ يتقدَّمُهم البطلُ العربيُ المشهورُ القعقاعُ بنُ عمروٍ التميميُّ. ثم ما كادتْ هذهِ الحَضِيرَةُ من الفرسانِ تصلُ الى المعسكرِ حتى علا الغبارُ مرة ً ثانيةً، ثم انكشفَ عن حضيرةٍ أخرى وتكرَّرَ الأمرُ ثالثةً ورابعةً وخامسةً حتى بلغَ عددُ الفرسانِ ألفاً.

كانت تلك هي كتيبةَ القعقاعِ المعروفة باسمِ «الكتيبةِ الخَرْساءِ». وهي إحدى كتائبِ جيشِ خالدِ بنِ الوليدِ الذي انطلقَ مِن العراقِ قبلَ أشهرٍ لنجدةِ الجيوشِ العربيةِ في اليَرْموكِ إنفاذاً لأَمر أبي بكرٍ. وها هي ذي الآنَ تعودُ الى الخِدْمةِ في الجبهةِ العراقيةِ بعدَ انتهاءِ مُهمَّتِها في الجبهةِ الشاميةِ. ولكنْ أينَ بقيةُ الجيشِ؟ تلك قصةٌ أخرى يمكنُ إيجازُها بما يَأتي:

فبعدَ أنْ تولّى عُمُر بنُ الخطابِ أمرَ المسلمينَ أرسلَ بإسنادِ القيادةِ العامةِ في الشامِ الى أبي عُبَيْدَةَ ابن الجَرّاحِ، وبعزلِ خالدِ بنِ الوليدِ عن إمارةِ جيشِهِ العراقيِّ، وتأميرِ هِشامِ بنِ عُتْبَةَ بنِ أبي وقّاصٍ على هذا الجيشِ، وإعادتِهِ الى العراقِ ليكونَ مَدَداً لسعدِ ابنِ أبي وقّاصٍ في القادسيةِ.

ولما كانتِ الأوامرُ الصادرةُ الى هِشامٍ تحثُّهُ على الإسراعِ، جعلَ الكتيبةَ الخرساء مُقَدَّمَةً لجيشِهِ، وأمرَ قائدَها القعقاعَ بالانطلاقِ بها في أقصى سرعةٍ مُمكنةٍ لتبشيرِ أهلِ القادسيةِ بقُرْبِ وصولِ النَّجداتِ إليهم. وكان من جَرّاءِ ذلك أَنْ وصلَ القعقاعُ الى القادسيةِ قَبْلَ جيشِ النَّجدةِ بيومٍ كاملٍ. فلمّا طلعَ على العسكَرينِ ورأى أنَّهما يستعدّانِ للقتالِ، أرادَ أن يُقَوِّيَ قلوبَ المسلمِينَ، ويُثَبِّطَ هِمَمَ المشركِينَ، فقسمَ كتيبتَهُ الى حَضائرَ، كلُّ حضيرةٍ من عَشَرَةِ فرسانٍ، وأمرَها أن تَتَوافَدَ الى ساحةِ المعركةِ مُتلاحقةً، فلا تصلُ حضيرةٌ الى الساحةِ حتى تكونَ التي بعدَها قد طَلَعَتْ في الأفُقِ، حتى يَظُنَّ العدوُّ أَنَّ الأَمدادَ العربية كثيفةٌ مُتواصلةٌ وانطلقَ هو بالحضيرةِ الأولى كما رأيْنا قبلَ قليلٍ.

إذنْ ما كادَ القعقاعُ يَصِلُ الى مُعسكرِ المسلِمينَ حتى سَلَّمَ علىٰ إخوانِهِ وبَشَّرَهُم بأنَّ جيشَ هِشامٍ خلفَهُ يحثُّ الخُطا نَحوَهَم، فكبَّرَ المسلمونَ مُستبشِرينَ.

ولزيادةِ تقويةِ قُلوبِ المسلِمين أمرَ القعقاعُ رجالَهُ بالاشتراكِ في القِتالِ فَوْرَ وصولِهِم. وبرز هو نفسُهُ بَيْنَ الصفَّينِ وصاحَ: مَنْ يُبارِزُ؟ فبرزَ إليه قائدُ الفرسِ في معركةِ الجِسْرِ التي قُتِلَ فيها القائدُ العربيُّ أبو عُبَيْدٍ الثَّقَفِيُّ، فسألَهُ القعقاعُ: مَنْ أنتَ؟ فقال القائدُ الفارسيُّ: أنا بَهْمَنْ جاذَوَيْهِ. فصاحَ القعقاعُ في غَضَبٍ: يا لَثاراتِ أبي عُبَيْدٍ وأصحابِ الجِسْرِ!! وهجمَ عليه كالأَسَدِ الهَصُورِ. وما هي إلاّ جَوْلةٌ أو جَوْلتانِ حتى قَتَلَهُ. ثم صاحَ ثانيةً: مَنْ يُبارِزُ؟ فخرجَ إليه رَجُلانِ، يُدعى أحدُهُما «البَيْرزانَ»، ويُدعىٰ

الآخَرُ «البِنْدَوانَ»، وكانا أيضاً من قادةِ الفرسِ المشهورِينَ، فانضمَّ الى القعقاعِ أحدُ الأبطالِ العربِ، وهو الحارثُ بنُ ظَبيانَ، فبارزَ القعقاعُ البَيْرزانَ، فضربَهُ فأطاحَ برأسِهِ، وبارزَ الحارثُ البِندوانَ، فضربَهُ فأطارَ رأسَهُ.

وظلَّ القعقاعُ كلّما قَدِمَتْ إحدىٰ حضائِرِهِ خرجَ للمُبارزةِ، حتى بلغَ عددُ مَنْ قتلَهُم في ذلك اليوم ثلاثِينَ رجلاً من صناديدِ الفرسِ وأبطالِهِمُ المشهورِينَ.

واستمرَّ القِتالُ بينَ العسكَرينِ على هذهِ الصورةِ من المُبارزاتِ الفرديةِ الى الظُّهرِ عندما أمرَ سعدُ بنُ أبي وقّاص بالزَّحفِ العامِّ.

انتقلَ سعدٌ الآنَ من مَوْقفِ الدفاعِ الذي وقفَهُ

البارحة الى موقفِ الهجوم ِمنتهزاً فُرصةَ غِيابِ الفيلةِ من جِهةٍ، وانكسارَ الروحِ المعنويةِ لدى الفرسِ من جراء ِ خسائرِهِمُ الفادحةِ في قُوّادِهِم وأبطالِهِم في المبارزاتِ من جهةٍ أخرى، ومستغلاً في الوقتِ نفسهِ ارتفاعَ الروحِ المعنويةِ لدى جنودِهِ بوصولِ القعقاعِ وكتيبتِهِ الخرساءِ.

ولاحظَ سعدٌ أَنَّ مُشاةَ القلبِ في الجَيشِ الفارسيِّ مكشوفون تماماً، لأَنَّ رُستُمَ كانَ قد وضعَ الفرسانَ خلفَهُم لا أمامَهُم، فانتهَزَها فُرصةً، وأَمرَ بشنِّ هجومٍ مركَّزٍ على القلبِ مَدْعومٍ بالخَيَّالةِ من كِلا جَناحَيِ الجَيشِ العَربيِّ. ولكيلا يتعرَّضَ هذا الهجومُ لأَيةِ عَرْقَلَةٍ قد تأتي من قِبَلِ جناحَيِ الفرسِ، فقد أمرَ سعدٌ بأَنْ يُشاغَلَ هذانِ الجناحانِ بفصائلِ الإِبلِ المُبَرقَعَةِ لإفزاعِ خيولِهِم وتَفْريقِ فُرسانِهِم.

ونُفِّذَتِ الخُطَّةُ كما رُسِمَتْ، فكانَ لمنظرِ الإبلِ المبرقعةِ في الخيولِ الفارسيةِ أَثَرٌ لا يَقِلُّ عن أثرِ الفيلةِ في الخيولِ العَربيةِ، فَنَفَرَتْ خُيولُ الفرسِ وتَفَرَّقَتْ، فلم يستطعْ فرسانُها أَنْ يقدِّموا أيةَ مُساعدةٍ لمشاةِ القلبِ الذين كانوا يتحمَّلون وحدَهُم وَطْأَةَ الهجومِ العربيِّ الكاسحِ.

وجَنَحَتِ الشمسُ نحو المَغيبِ، فصارتْ أشِعَّتُها الآنَ خَلْفَ العربِ وفي مُواجَهَةِ الفرسِ الذين انبهرتْ منها أَبصارُهُم، وأصبحوا لا يكادون يُمَيِّزون ما أمامَهُم. ولم يَخْفَ هذا على سعدٍ المُنْبَطِحِ في شُرْفَتِهِ، والذي أسرعَ الى استغلالِ الموقفِ، فأمرَ بتعزيزِ الهجومِ العربيِّ بفرقةِ الاحتياطِ المؤلّفةِ من خمسةِ آلافِ مقاتلٍ، والتي لم تشتركْ في القتالِ حتى الآنَ.

انقَضَّتِ الفرقةُ الاحتياطيةُ المرتاحةُ على قلبِ الجيشِ الفارسيِّ انقضاضَ الصاعقةِ فاضطربتْ صفوفُ الفرسِ، وتزعزعتْ كتائبُهُم، وكادَتِ الدائرةُ تدورُ عليهم. ولولا الهجومُ المعاكسُ الذي شنَّهُ سِلاحُ فرسانِهِم، لانكشفَ القَلْبُ، ولَوَصلتِ القواتُ العربيةُ الى مَقَرِّ قِيادةِ رُسْتَمَ الذي لم يبقَ بينَهُ و بينَها سوى بضعِ عشراتٍ من الأمتارِ.

وغابتِ الشمسُ، فخفَّتْ وطأةُ الهجومِ العربِيِ، ورجعَ القِتالُ سجالاً بين العسكَرينِ الى أن توقَّفَ نهائياً عند مُنتَصَفِ الليلِ.

خسر العربُ في يومِ أَغْواتٍ ٢٥٠٠ شهيدٍ، أمّا الفرس فقد قُتِلَ منهم أكثرُ مِن عَشَرَةِ آلافٍ.

يوم عِمَاس

(بوادرُ نصرٍ مُؤَزَّرٍ)

لم تختلفْ وقائعُ يومِ عِماسٍ عن وقائعِ يومِ أَغواثٍ إلّا قليلاً؛ فمنذُ الصباحِ اصطفَّ العسكرانِ للقتالِ، ولكنَّ سعداً لم يأمْر بالزحفِ العامِّ إلا عندَ الظهرِ تقريباً ربّما لأنَّه أرادَ أَنْ تكونَ الشمسُ في مُواجهةِ الفرسِ، فتنبهرَ أبصارُهُم، فلا يُمكنَهُم تفادي ضَرَباتِ العربِ المُسَدَّدةِ إليهم.

وكما حدثَ في اليومِ السابقِ، فإنّ «حاجبَ بنَ زَيْدٍ»، وهو المسؤولُ عن الشهداءِ، أمضى جزءاً من

الفَتْرَةِ الصباحيةِ في نَقْلِ الجُثَثِ ودفنِها بينما كان الجيشانِ يستكمِلانِ استعداداتِهما.

والظاهرُ أَنَّ الفرسَ استطاعوا إصلاحَ صناديقِ الفِيَلَةِ، إذ ما كادتْ صُفوفُهُم تأخذُ مواقفَها حتى ظهرتِ الفِيَلَةُ أمامَها بصناديقِها الجديدةِ، وقد جُهِّزَتْ بِفِرَقٍ حديثةٍ من الرماةِ.

و يبدو أنَّ الفرسَ خافوا أَنْ يقعَ لِفِيَلَتِهِم اليومَ ما وقعَ لها أَمْسِ الأَوَّلَ، فلم يتركُوها وحدَها في الساحةِ، بل أحاطُوها بفصائلَ قو يةٍ من المُشاةِ لحمايتِها.

ومن الوقائعِ الجديدةِ في هذا اليومِ أيضاً أنَّ القعقاعَ بنَ عمروٍ كان قَدِ استبطأَ جيشَ هاشمٍ، وخَشِيَ ألاّ يَصِلَ في هذا اليومِ فينقَطِعَ بذلك رجاء المسلِمينَ، فأراد أَنْ يُجَدِّدَ لهمُ الأَمَلَ، فقضى بَقِيَّة

الليلةِ الفائتَةِ يُسَرِّبُ رجالَ كتيبتِهِ الخرساءِ الى المكانِ الذي قَدِمُوا منهُ صباحَ البارحةِ، وقَسَمَهم الى سرايا، تتألّفُ كلُّ سَرِيَّةٍ من مِائةِ فارسٍ، وقال لهم: انتظروا هُنا حتى شروقِ الشمسِ. فإن وصلَ جيشُ هاشمٍ فانضمُّوا إليه وأَقبلوا معَهُ، وإنْ يَصِلْ فتلاحَقُوا الى الساحةِ سَرِيَّةً إثْرَ سَرِيَّةٍ لِتُجدِّدوا للمسلِمينَ الأَمَلَ.

وفعَل أخوهُ عاصمُ بنُ عمروٍ بكتيبتِهِ المُسَمّاةِ «كتيبةَ الأهوالِ» مثلَ ذلك. ولكنَّهُ أَكْمَنَ رجالَها في الجهةِ الجنُوبيةِ لكي يَظُنَّ من يَرى سراياها تتلاحقُ أنها مَدَدٌ قادمٌ مِن الحجازِ.

وحدثَ ما توقَّعَهُ القعقاعُ وأخوه عاصمٌ، فقد أشرقَتِ الشمسُ دونَ أن يظهرَ لجيشِ هاشمٍ أيُّ أَثرٍ كانَ. وعندئذٍ، وفي وقتٍ واحدٍ، ارتفعَ الغبارُ من

الجِهتَينِ الشّماليةِ والجنُوبيةِ، وطَفِقَتْ سرايا الكتيبتَينِ تَتَوارَدُ الى الساحةِ وأصواتُ التَّهليلِ والتكبيرِ تسبِقُها. وكَبَّرَ المسلمونَ الواقفونَ وقد ظَنُّوا أَنَّ الأَمْدادَ تتلاحَقُ إليهم من الشامِ والحجازِ معاً.

وكان مِن حُسْنِ حظِّ المسلِمينَ أَنَّ جيشَ هاشِمٍ وصلَ في اللحظةِ التي كانتْ أخْرى سرايا الكتيبةِ الخرساءِ تستعدُّ فيها للتَّحرُّكِ. ولما سألَ هاشمٌ عن سببِ وجودِ هذهِ السريةِ في هذا المكانِ أخبرَهُ قائدُها بالأَمرِ، فاستحسنَ هاشمٌ الفِكْرَةَ، وأمرَ فوراً بتقسيمِ جيشِهِ كلِّهِ الى سرايا، تتأَلَّفُ كلٌّ منها من سَبعينَ رجلاً، ثم أمرَ هذه السرايا بأنْ تتلاحَقَ الى ساحةِ المعركةِ. وسارَ هو نفسُهُ يتقدَّمُ السَّرِيَّةَ الأولى.

وكانَ أولَ ما فعلَهُ بعدَ وصولِهِ وتسليمِهِ على الناسِ أَنْ صَعِدَ الى القصرِ، وقدَّمَ نفسَهُ الى القائدِ

العامّ الذي أمرَهُ أن يُعَزِّزَ بجيشِهِ مَيْمنةَ الجيشِ العربيِّ التي ضَعُفَتْ نتيجةَ الخسائرِ التي لَحِقَتْ بِها في اليومَينِ السابقَينِ.

عندَ الضُحىٰ بدأَ القتالُ بالمُبارزاتِ الفرديةِ التي لم يكنْ لها اليومَ شأنٌ يُذكَرُ، لأن أكثرَ أبطالِ الفرسِ وصنادِيدِهِم قد قُتِلوا في اليومِ السابقِ على أَيدي مَغاويرِ العربِ من أمثالِ القعقاعِ وأخيه عاصمٍ، وعَمْرو بنِ مَعدِيكَرِبَ، وطُلَيْحَةَ الأسديِّ، وغيرِهِم...

وعندَ الظُّهرِ أَمرَ سعدٌ بالزَّحفِ العامِّ.

ومنذُ اللَّحظاتِ الأولى لِلاِشْتباكِ بَدَا واضحاً أن رُسْتَمَ يُحاولُ اليومَ أيضاً تَطبيقَ خُطَّتِهِ التي حَبِطَتْ في اليومِ الأوَّلِ. فقد وَجَّهَ فِيَلَتَهُ نحو الخَيّالةِ العربِ

لتفريقهِم وإبعادِهم عن المعركةِ، لِيَسْتَفْرِدَ القلبَ ويَضْرِبَهُ الضربةَ القاتلةَ.

ولاحظَ سعدٌ ذلك جيداً. ولكن رأى في الوقتِ نفسِهِ أنه من المُتَعَذِّرِ القيامُ بعمليةٍ ثانيةٍ لتقطيعِ أَرْبطَةِ الفِيَلَةِ بسببِ الحِمايةِ القويةِ التي أحاطَ بها مشاةُ الفرسِ فِيَلَتَهُم. ومع ذلك لا بدَّ من فِعْلِ شيءٍ للخلاصِ من شَرِّ هذه الفيلةِ اللعينةِ التي راحتِ اليومَ تفتِكُ بالفرسانِ العربِ بأشدَّ مِمّا فعلتْ في اليومِ الأولِ.

أطلَّ سعدٌ من شُرفتِهِ نحو خالدِ بنِ عُرْفُطَةَ الذي كان تحتَهُ على فَرَسِهِ، وقال له: عليَّ بالقعقاعِ وأخيه من بني تميمٍ، وبِحَمّالٍ والرِّبِّيلِ من بني أَسَدٍ.

وبعدَ لحظاتٍ كان الرجالُ الأربعةُ المغاويرُ

تحتَ الشُّرفةِ، فقال لهم سعدٌ: إنكم تَرَوْنَ ما تصنعُهُ هذهِ الفيلةُ بفرسانِ العربِ، ولقد رَجَوْتُ أَنْ يكونَ خلاصُنا مِن شَرِّها على أَيدِيكم، فانظرُوا ماذا تَفعَلونَ.

قالَ القعقاعُ: أَيُّها الأميرُ، ولكنَّ السيوفَ والرِّماحَ والسِّهامَ لا تنفذُ في جُلودِها الثخينةِ. فقالَ سعدٌ: أَعلمُ ذلك. ولكنّي سألتُ جَماعةً من الفرسِ مِمَّن أسلمُوا عن مَقَاتِلِها، فقالوا لي: إنها عُيونُها وأَفْواهُها. فإنِ اسْتطعْتُم أَنْ تَصِلُوا بسيوفِكِم ورِماحِكُم الى هذهِ المَقَاتِلِ فإني أَرجوا أنْ يكونَ في ذلك خلاصُ المسلِمين. ثم إني راقبْتُ هذه الفيلةَ طويلاً، فرأيتُ أنها جميعاً تنقادُ الى فيلَينِ منها عظيمَينِ يَقِفانِ في القَلْبِ، أحدُهُما أبيضُ، والآخَرُ أجربُ. فحيثما اتَّجَهَ هذانِ الفِيلانِ اتَّجَهَ سائرُ

الفيلةِ. فإذا أَمْكَنَكُم تنفيرُ هذَينِ وإخراجُهُما مِنَ المعركةِ، فإني أتوقَّعُ أَنْ تُتْبَعَهُما بقيةُ الفِيَلَةِ. فاذهبْ أنتَ يا قعقاعُ مع أخيك عاصمٍ فاكْفِياني الفيلَ الأبيضَ، واذهبْ أنتَ يا حَمَّالُ مع الرِّبِّيلِ فاكْفِياني الفيلَ الأَجربَ.

ومضى المغاويرُ الأربعةُ لإنفاذِ الأَمرِ. فأَمّا القعقاعُ وعاصمٌ فقد وضعا رُمْحَيْهِما في عَيْنَيِ الفيلِ الأَبيضِ، فَقَبَعَ ونَفَضَ رأسَهُ، وطرحَ سَائِسَهُ، ودَلّى مِشْفَرَهُ، فضربَهُ القعقاعُ بسيفِهِ، فرمى بِهِ، ووقعَ لِجَنْبِهِ.

وأما حَمَّالٌ فقد قالِ لِلرِّبِّيلِ: أختَرْ. إمّا أن تضرِبَ المِشْفَرَ، وأَطْعُنَ في عينِهِ، أو تَطْعُنَ في عَيْنِهِ، وأضرِبَ أنا مِشْفَرَهُ. فاختار الرِّبِّيلُ الضَّرْبَ. فحملَ عليه حَمَّالٌ وطعَنُ في عينِهِ، فَأَقْعى ثم اسْتَوى.

وضربهُ الرِّبّيل فأبانَ مِشْفَرَهُ فَفَرَّ حتى وَثَبَ في نَهرِ العَتيقِ، وتَبِعتْهُ الفِيَلَةُ، وخَرَقَتْ صُفوفَ الفرسِ، وألقتْ مَنْ عليها، وعَبَرَتِ العَتيقَ في أَثَر الأجْرَبِ.

وبخروجِ الفيلةِ من المعركةِ رجعَ القتالُ مُتكافِئاً بينَ الطرفَينِ حتى المساءِ، وإنْ كانَ قد تَمَيَّزَ اليومَ بعُنْفٍ وشدةٍ لم تكونا له في اليومَينِ السابقَينِ.

ليلة الهرير

(أول معركة ليلية)

وعندَ العِشاءِ هدأَ القِتالُ، وتحاجَزَ العسكرانِ. وبَدَا أنهما في حاجةٍ ماسةٍ الى ليلةٍ هادئةٍ يرتاحانِ فيها استعداداً ليومٍ رابعٍ.

ولكنَّ سعداً كان على عِلْمٍ بوجودِ مَخَاضةٍ في النهرِ أسفلَ العَسْكَرِ، وخَشِيَ أن يكونَ العدوُّ قدِ اكتشفَ أَمرَها وبَيَّتَ حركةَ التفافٍ على الجيشِ العَرَبيِّ منها، فأرسلَ طُلَيْحَةَ الأسديَّ وعمرَو بنَ

معدِيكربَ الزَّبيديِّ في جماعةٍ من الجُنْدِ، وقال لهما: إن وجدْتُما الفرسَ قد سبقوكُما إليها فانزلا بِحِيالِهِم، وإنْ لم تجداهُم علمُوا بها فَأَقيما حتى يَأْتِيَكُما أَمْرِي.

فلمّا وصلا ولم يجدا أحداً من الفرسِ هُناكَ، قال طُليحةُ لعمروٍ: يا عمرُو، ماذا لو خُضْنا من هُنا، وأَغَرْنا على مُؤَخَّرةِ العدوِّ؟ قال عمرُو: ما بهذا أَمَرَنا سَعْدٌ. ولكن إذا كان لا بدَّ، فَلْنَخُضْ مِن مكانٍ آخَرَ حتى إذا رَجَعْنا والعدوُّ يُلاحِقُنا لم يكتشِفْ أَمْرَ المخاضةِ. فأبى طُليحةُ ذلك. واستبدَّ كلٌّ منهما برأيِهِ، فمضى عمرٌو بنُ معدِيكربَ بالرجالِ جميعاً، فعبرَ بهم من مكانٍ بعيدٍ، وعبرَ طُليحةُ من المخاضةِ وحدَهُ. فأمّا طُليحةُ فإنّه تسلَّلَ عَبْرَ خطوطِ الفرسِ حتى صارَ خلفَهُم. وعندئذٍ صاحَ بكلِّ قوتِهِ: اللهُ أكبرُ! اللهُ أكبرُ! اللهُ أكبرُ!.

وسَمِعَ الجيشانِ صياحَهُ. فأمّا العربُ فظنوا أن رِفاقاً لهم ظَفِرَ بِهِمُ العدوُّ فهم يُكَبِّرون مُستنجِدِينَ بهم، وأما الفرسُ فظنّوا أنها مَكِيدةٌ مِن العرب، وأنهم يُهاجمونَهم مِن الخلفِ. وقد أكَّدَ ظنَّهم أنَّ عمرُو بنَ مَعْدِيكربَ ما كادَ يَصِلُ بمفرزتِهِ الى مُؤَخَّرَتِهِم حتى شَدَّ الإغارةَ عليهم.

أرسلَ رُسْتَمُ كتيبةً ضخمةً الى مؤخرةِ جيشِهِ لاستطلاعِ الخبرِ، وتطويقِ المفرزةِ العربيةِ للقضاءِ عليها. ولكنَّ عمرَو بنَ معديكربَ أسرعَ في الإنسحابِ عائداً من الطريقِ الذي جاء مِنه. وكذلك فعلَ طُليحةُ الذي انسلَّ من بينِ الصُّفوفِ، ورجعَ مِن حيثُ أتى دونَ أَنْ يسمحَ للعدوِّ بالكشفِ عن سِرِّ المخاضةِ. وجاء الرجلانِ الى سَعْدٍ فأخبراه بما صَنَعا.

كانتْ هذه العمليةُ نذيرَ خَطَرٍ بالنِّسبةِ الى رُسْتَمَ، فقد لفتَتْ نَظَرَهُ الى احتمالِ أَنْ يكونَ العربُ قد بيَّتوا له هجوماً ليليّاً مُفاجِئاً. وحتى يُفَوِّتَ عليهم هذه الفرصةَ أَمَرَ باستئنافِ القِتالِ، فَقَدَّمَ الى المعركةِ صفاً، ثم ثانياً، ثم ثالثاً، حتى بَلَغتْ صُفوفُهُ ثلاثةَ عَشَرَ صفاً في كلٍّ مِن القلبِ والجَناحَينِ.

وأما سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ فقد وجدَ نفسَهُ مُضْطراً الى خَوْضِ معركةٍ ليليّةٍ اخرى، فأمرَ جُنودَهُ بالاستعدادِ، وألاّ يبدؤوا الزحفَ إلا بعدَ سماعِهِم التكبيرةَ الثالثةَ. وانبطحَ في شُرفتِهِ على صَدْرِهِ يراقبُ الجيشَينِ، و يَنتظرُ اللحظةَ المناسبةَ لإعطاءِ الإشارةِ بالزحفِ العامِّ.

كان القعقاعُ في أقصى حَماستِهِ، فلم ينتظرْ التكبيرةَ الثالثةَ مِن سعدٍ، وزحفَ بكتيبتِهِ الخرساءِ

الراكبةِ، وتبعتْهُ كتائبُ الفرسانِ الأخرى، واشتبكوا مع زحوفِ العدوِّ بالرَّمْيِ. وأطلَّ سعدٌ من شُرفتِهِ، ورأى ما فعلَهُ القعقاعُ فقال: اللّهمَّ اغفرْ للقعقاعِ وانصرْهُ، فإني أَذنْتُ له بقَلْبي وإنْ لم يَنْتَظِرْ إذني.

وما هي إلا لحظاتٌ حتى سَمِعَ القُوّادُ التكبيرةَ الثالثةَ مِن سعدٍ، فزحفوا بكتائبِهِم من الفرسانِ والمُشاةِ، واشتبكُوا مع العدوِّ في معركةٍ طاحنةٍ كانت أعنفَ وأقسى من كلِّ ما سبقَها مِن الجَوْلاتِ. واختلطَتِ الصفوفُ اختلاطاً شديداً بحيثُ لم يَبْقَ في الإمكانِ تمييزُ قطعةٍ مِن قطعةٍ، ولا صفٍ من صفٍ. وارتفع الغبارُ من كل جانبٍ، فلم يَعُدْ نورُ القمرِ الضعيفُ كافياً لرؤيةِ الأشياءِ، أو لتمييزِ العدوِّ من الصَّدِيقِ.

انقطعتْ أخبارُ القتالِ عن كلٍّ مِن سعدٍ ورُسْتَمَ

بسببِ هذا الاختلاطِ الشديدِ بينَ عساكرِ الجيشَينِ، وأصبحا عاجزَينِ تماماً عن قيادةِ جيشَيْهما. فرأى كلٌّ منهما أن يتركَ لكتائبِهِ حريَّةَ التصرُّفِ بما يلائمُ كلَّ كتيبةٍ على حِدَةٍ، ولم يبقَ أمامَهُما سِوى انتظارِ أن يَطْلُعَ الفجرُ لينجلِيَ الموقفُ.

ليس في وُسْعِ الكلماتِ، مهما بلغَتْ، أن تَصِفَ هَوْلَ تلك المعركةِ الليليةِ وعُنفَها وشراسَتَها. لقد صمَّمَ كلا الجيشَينِ على حَسْمِ المعركةِ لمصلحتِهِ مهما بلغَ الثمنُ، فلم يكنْ يُسمعُ خِلالَ الليلِ البهيمِ سوى قعقعةِ السِّلاحِ، وصَهيلِ الخَيْلِ، وزَمْزَمَةِ الرجالِ الخافتةِ التي تشبهُ هريرَ الهِرَرَةِ، فلا عَجَبَ أن سَمَّوْا تلك الليلةَ الرهيبةَ بليلةِ الهريرِ.

ومعَ أولِ خيطٍ من النورِ لاحتْ تباشيرُ النصرِ للجَيشِ العَربيِّ.

يوم القادسية

(ثمرة الصبر والتصميم)

ولكنَّ الرجالَ كانوا في غايةِ الإنهاكِ، فقد كلَّتْ سواعدُهُم مِن الضربِ والطَّعنِ وتكسَّرتْ جُفونُهم من شِدَّةِ النُّعاسِ، وبدا واضحاً أنهم يُريدون فترةَ استجمامٍ وراحةٍ ليستعيدوا قُواهُم.

وكادَ سَعدٌ أَنْ يَأْمرَ بوقفِ القتالِ لولا أَنَّ القعقاعَ خَشِيَ أَنْ تُفْلِتَ الفرصةُ في آخِرِ لحظةٍ، ورأى أَنَّ صَبْرَ ساعةٍ أو ساعتَينِ لإحرازِ النصرِ التامِّ

خيرٌ من راحةٍ يستعيدُ فيها العدوُّ قُواه، و يُعيدُ تنظيمَ صُفوفِهِ، فتطولُ المعركةُ أياماً أخَرَ. ولهذا كلِّه طلبَ من القائدِ العامِّ أَنْ يأمُرَ بالاستمرارِ في الهجومِ ساعتَينِ أُخْرَيَيْنِ. ووافقَ سعدٌ على طلبِهِ، واستُؤنِفَ الهجومُ بأشدَّ ما تكونُ الضراوةُ والعُنْفُ.

مَضَتِ الساعةُ الأولى، ثم الثانيةُ، وبدأتْ صفوفُ الفرسِ تَضْطَرِبُ، وأخذتْ كتائبُهُم تتراجع وتتقهقرُ.

كان أولُ ما تراجعَ من الجَيْشِ الفارسيِّ هو الميسرةَ بقيادةِ «الهرمزانِ» الذي تقهقرَ بها مسافةَ مِائةِ مِترٍ ثم ثَبَتَ حيثُ وَصَلَ، وبعدَهُ بدَقائقَ تراجعَ «البَيْرزانُ» بالمَيْمنَةِ، ووقفَ في مُوازاةِ المَيْسَرةِ. وبهذا صارَ القلبُ مكشوفاً من ثلاثِ جهاتٍ بعد أَنْ تأخَّرَ عنه الجناحانِ.

ولم يُفَوِّتْ سعدُ هذه الفرصةَ فأمرَ بشنِّ هجومٍ عامٍّ على القلبِ، وزج في هذا الهجوم بكلِّ ما عندَهُ من كتائبِ الفرسانِ الخفيفةِ.

وهبَّتْ في هذهِ اللحظةِ رِيحٌ عاصفٌ من جِهةِ العربِ، فَسَفَتِ الرِّمالَ والترابَ في وجوهِ الفرسِ، فَأَعْمَتْ عُيونَهُم، ووقعَتْ سيوفُ العربِ في أعناقِهِم، فَوَلَّوُا الأَدبارَ يطلبونَ النجاةَ.

ولم يمضِ نصفُ ساعةٍ على ذلك حتى كانتْ قُواتُ القَلْبِ قدِ انسحقَتْ تماماً. فلما أَدركَ رُسْتَمُ أنها النهايةُ المُرَّةُ نَزَعَ ما كان عليه مِن سِلاحٍ ودُروعٍ، وأَلقى بنفسِهِ في النهرِ يريدُ النجاةَ بروحِهِ. ولكنَّ فتًى عربيّاً يُدعى «هِلالاً التميميَّ» بَصُرَ بِهِ وهو يَعومُ في النهرِ، فهجَمَ عليه، وأمسكَ بهِ مِن رجلِهِ، ثم جَرَّهُ حتى أَخْرَجَهُ، فضربَهُ بالسيفِ على جبينِهِ فقتلَهُ،

وصَعِدَ فوقَ سَريرِهِ الذي كانَ يجلسُ عليهِ، وصاحَ! قَتَلْتُ رُسْتَمَ وَرَبِّ الكعبة!.

* * *

تَسَلَّمَ «الجالينوسُ» القيادةَ العامةَ بعدَ مَقْتَلِ رستَمَ. وكان أولُ عملٍ قامَ به هو أنّه أَمَرَ بالانسحابِ السريعِ. ووقفَ مع بِضْعِ كتائبَ من الفرسانِ يَحمي عمليةَ الانسحابِ التي كانتْ تَجري في سُرعةٍ واضطرابٍ عبرَ الرَّدْمِ الذي عَبَرُوا عليهِ.

لم يَسْتطِعِ الردمُ أَنْ يتحمَّل ثِقَلَ القواتِ الكثيرةِ المُزْدَحِمَةِ فوقَهُ فانهارَ وسَقَطَ مَنْ كان فوقَهُ، فَغَرِقُوا في النهرِ. وكانوا ثلاثِينَ ألفاً.

لما رأى الجالينوسُ إخفاقَ عمليةِ الانسحابِ المُنَظَّمِ لم يجدْ أمامَه سوى أَنْ يُطْلِقَ العِنانَ لِفَرَسِهِ

لِيَنْجُوَ بنفسِهِ مع مَن بَقِيَ معه مِن فصائلِ الفرسانِ. ولكنَّ زُهْرَةَ بـن الحَوِيَّة قائدَ الطليعةِ العربيةِ فَوَّتَ عليه هذه الفُرصةَ الأخيرةَ عندما قَطَعَ النهرَ بفرسِهِ وَثْبأ، ومعَهُ ٣٠٠ فارسٍ وراءهُ، ثم انطلقَ في أَثَرِ الجالينوسِ حتى أدركَهُ وقَتَلَهُ.

وبهذا انتهتْ معركةُ القادسيةِ التي قُتِلَ فيها أكثرُ مِن خمسينَ ألفاً من الفرسِ، وفَقَدَ فيها العربُ ما يقرُبُ من عَشَرَةِ آلافِ شهيدٍ.

نظرة تحليلة

لم يكنْ في معركةِ القادسيةِ شيءٌ يُميِّزُها مِن المعاركِ العاديةِ، لا مِن الناحيةِ السَّوْقِيَّةِ (الاستراتيجيةِ)، ولا مِن الناحيةِ التَّعْبَوِيَّةِ (التكتيكيةِ). فلم يكنْ هناك كمائِنُ، ولا حَرَكاتُ الْتفافٍ، ولا مُفاجآتٌ مِن أيِّ نوعٍ كانَ. والغارةُ الليليةُ التي شَنَّتْها مفرزةُ عمرِو بنِ مَعْدِيكَرِبَ على خُطوطِ الفرسِ الخلفيةِ لم يكنْ لها أثرٌ تَعْبَوِيٌّ يُذْكَرُ، وكل ما نتجَ عنها هو إشعالُ معركةٍ ليليةٍ كانتْ شديدةَ القسوةِ على كِلا الطرفَيْنِ. وإذا

استثنَيْنا ما قامَ القعقاعُ وأخوهُ عاصمٌ من تسريبِ كَتيبتَيْهِما ليلاً، ثم إيرادِ سرايا الكتيبتين في صباحِ اليومِ التالي على هيئةِ أَمْدادٍ متلاحقةٍ. ـــ وهي عمليةٌ لم يُقْصَدْ منها سوى رفعِ معنوياتٍ العربِ ـــ إذا استثنينا ذلك بدتْ معركةُ القادسيةِ واحدةً من المعاركِ العاديةِ التي يعتمدُ فيها القُوّادُ على قوةِ الصَّدْمةِ، و يسعَونْ الى زَعْزَعَةِ العدوِّ بضربِ قلبِهِ أو أَحدِ جناحَيْهِ.

ولا ندري السببَ الذي حملَ كُلاً من سعدٍ ورُسْتَمَ على اتخاذِ هذا الموقفِ. ربما كان ذلك يعودُ الى طبيعةِ الأرضِ التي وَفَّرَتْ لكلا الطرفَينِ مانعاً طبيعياً يحمي مُؤَخَّرتَهُ: فأما رُسْتَمُ فقد جعلَ خلفَهُ نهرَ العتيقِ، وأما سعدٌ فقد استندَ بمؤَخَّرتِهِ الى خندقِ سابورَ. وهكذا لم يكنْ بإمكانِ أحدِهِما أَنْ يقومَ

بعمليةِ الْتفافٍ ناجحةٍ على مؤخَّرةِ خصمِهِ، كما لم يكنْ بإمكانِ أيِّ طرفٍ أَنْ يناورَ بفرسانِهِ في عملياتِ كَرٍّ وفَرٍّ واستدراجٍ. أضفْ الى ذلك أَنَّ الأراضِيَ المغمورةَ بالمياهِ التي كانتْ تمتدُّ عن يَسارِ ساحةِ المعركةِ، والأراضِيَ المنبسطةَ المفتوحةَ التي كانت تمتدُّ عن يمينِها، كانتْ حائلاً قوّياً يحولُ دونَ نصبِ الكمائنِ لمفاجأةِ أجنحةِ العدوِّ بها.

وفي ظروفٍ كهذه يتوقَّعُ المرءُ أنْ يكونَ النصرُ إمّا لأكثرِ الفريقَينِ عَدَداً، وإما لأقواهُما تَسْلِيحاً. وكِلا هذين العاملَينِ كان متوفِّراً في الجانبِ الفارسيِّ لا في الجانبِ العربيِّ. ومع ذلك فقد كانتِ النتيجةُ انتصارَ العربِ على الفرسِ انتصاراً ساحِقاً. فما الذي حدثَ حتى رَجَحَتْ كِفَّةُ العربِ، وأَنزلوا بالفرسِ الهزيمةَ الساحِقةَ التي هَدَّتْ كِيانَهُم، وهَدَمَتْ إمبراطوريَّتَهُم؟

سنحاول فيما يلي تحليلَ العواملِ التي أدَّتْ الى ما حدثَ:

أولاً: كان واضحاً أَنَّ رستمَ عَوَّلَ كثيراً في رَسْمِ خُطَّتِهِ على عُنْصُرَينِ مُهمينِ عندَهُ، هُما: سِلاحُ الفِيَلَةِ بِمَن عليها مِن الرُّماةِ، ثم التَّفَوُّقُ العدديُّ الساحِقُ على الخَصْم (١٢٠ ألف فارسي ضدّ ٣٦ ألف عربيّ).

وقد بدا هذا التعديلُ واضحاً حينَ قذفَ في اليومِ الأول الفيلةَ والرماةَ فقطْ تاركاً سِلاحَ الفرسانِ خلفَ المشاةِ بلا عَمَلٍ، مُحتفظاً به للهجومِ النهائيِّ الحاسِمِ بعدَ أَنْ تكونَ الفيلةُ والرماةُ قد دمَّرتْ فرسانَ الخَصْمِ، وزعزعَتْ صفوفَ مُشاتِهِ.

ولكنَّ اعتمادَ رستمَ على الفيلةِ وحَدهَا كان أكبرَ خطأٍ تَعْبَويٍّ ارتكبَهُ؛ ذلك أنه ما كادَ يرى

فيلتَهُ تخرجُ مِن المعركةِ بعدَ أَنْ قطعَ العربُ أحزِمَتَها وقتلوا رُماتَها، حتى وجدَ نفسَهُ يُقاتلُ بغيرِ خُطَّةٍ بَديلةٍ. ولولا التفوقُ العدديُّ الساحقُ الذي عوَّضَ من خَسارةِ الفيلةِ لَتمَّتِ الهزيمةُ عليه منذُ اليومِ الأَولِ.

ولم يَتَّعِظْ رستمُ بما حدثَ لأَفْيالِهِ في اليومِ الأولِ، فعادَ في اليومِ الثالثِ فقدَّمَها وجعلَ كلَّ اعتمادِهِ عليها، ولم يستخدِمْ فرسانَهُ ومشاتَهُ إلا كعناصرِ حمايةٍ للأَفيالِ ورماتِها. فلما انهزمَتِ الفِيَلَةُ، وقُتِلَ الرماةُ الذينَ كانوا عليها، لم يبقَ لَدَيْهِ سوى مشاةٍ وفرسانٍ لا يدرونَ ماذا عليهم أَنْ يَفْعَلُوا. ولمّا حَوَّلَ اعتمادَهُ الى هؤلاءِ الفرسانِ والمشاةِ، وقذفَ بهم في ليلةِ الهريرِ، كان الأوانُ قد فاتَ، لِأَنَّ التَّعَبَ كان قد أخَذَ مِنهم مأخذَهُ بعدَ يومٍ كاملٍ من

قتالٍ لم يكنْ لهم فيه هَدَفٌ مُحَدَّدٌ.

ومع كُلِّ ذلك لا يجوزُ أَنْ نُلقيَ باللوم ِكلِّهِ على رستمَ لِما فَعَلَ؛ فقد كان هذا القائدُ يَعرفُ جيداً مُمَيِّزاتِ كلٍّ من الجُنديِّ العربيِّ والجنديِّ الفارسيِّ. كان يعرفُ أن الجنديَّ الفارسيَّ ليس على مستوى الجنديِّ العربيِّ في القتالِ بالسيفِ والرُّمْحِ، سَواءٌ أكانَ راجلاً أَمْ كان فارساً، وأنَّ ناحيةَ تفوُّقِهِ هي في الرَّمْيِ بالنُّشابِ فقطْ. وهذا ما عرفَهُ أعداؤُهُ أيضاً فلم يَفْسَحُوا له المجالَ لاستغلالِ هذه المِيزةِ.

ثانيا: خاض رستمُ معركةً لم يكنْ راغباً فيها، بل أُكْرِهَ عليها إكراهاً. فكان لهذه الناحيةِ النفسيةِ أسوأَ الأَثَرِ فيه وفي جنودِهِ وقُوّادِهِ.

ثالثاً: كان كثيرٌ مِن الجنودِ في الجيشِ الفارسيِّ

يُقاتلون مُكْرَهِينَ، فقد جُنِّدوا قَسْراً، وسِيقُوا الى معركةٍ لم يكونوا مُؤمنين بأهدافِهَا. بل إنَّ بعضَهُم قد قُيِّدُوا بالسلاسلِ احتراساً من هربِهِم، مما أدّى الى انتفاءِ عُنصرِ التفوُّقِ العدديِّ الذي كان يعتمدُ عليه رستمُ.

رابعاً: خَسِرَ الفرسُ في المبارزاتِ الفرديّةِ عدداً كبيراً من أبرزِ قُوادِهِم وأبطالِهِم، فأثَّرَ ذلك تأثيراً سيئاً في معنوياتِ الجُنودِ، وفي عمليةِ إدارةِ المعركةِ.

خامساً: اختارَ سعدٌ مكانَ معركتِهِ بما يناسبُ أوضاعَ جيشِهِ، ثم فرضَ هذا المكانَ على خصمِهِ فرضاً، فوفَّرَ بذلك واحداً من أَهَمِّ عناصرِ النصرِ في الحروبِ.

سادساً: أدركَ سعدٌ بذكاءٍ أَنَّ معركتَهُ هي ضدّ

الأفيالِ أولاً وآخراً؛ ولذلك رَكَّزَ عليها كلَّ جُهْدِهِ حتى تخلَّصَ منها، فَأَعْرى الجيشَ الفارسيَّ من أَهَمِّ عناصرِ قُوَّتِهِ، وجعلَ خصمَهُ رُستَمَ يقاتلُ بغيرِ خُطَّةٍ مرسومةٍ.

سابعاً: قاتلَ سعدٌ بكلِّ أسلحتِهِ. وكان دائماً يأمُرُ بالزحفِ العامِّ، والالتحامِ بالعدوِّ بالسيوفِ والرماحِ حتى يُعَطِّلَ سلاحَ الرماةِ القويَّ عندَ العدوِّ.

ثامناً: كان من أَخطرِ الأسلحةِ العربيةِ سلاحُ الدِّعايةِ الذي كان يقودُهُ سَلْمانُ الفارسيُّ؟ فقد عَمِلَ هذا السلاحُ بذكاءٍ ونشاطٍ رائعيَنْ في صفوفِ الأعداءِ والأصدقاءِ على حدٍ سواءٍ. وكان أَنْجَحَ إنجازاتِ هذ السلاحِ ما كان يُشِيعُهُ من أخبارٍ حولَ وساوسِ رُستَمَ ونُبواءتِهِ، وما كانَ يراهُ في مَنامِهِ من رؤيً تُبَشِّرُ بنصرِ العربِ، وتُنْذِرُ بزوالِ دَوْلةِ الفرسِ.

فهذه الأخبارُ كانتْ عاملاً لا يُستهان بهِ في تَثبيطِ هِمَمِ الفرسِ، ورَفْعِ معنوياتِ العربِ.

تاسعاً: كانَ من أبرزِ عواملِ نصرِ العربِ هذه الحَماسةُ الرائعة التي يعودُ الفضلُ في تأْجيجِها الى كلٍ من القعقاعِ وأخيه عاصمٍ، وعمرِو بنِ مَعْدِيكربَ الزبيديِّ، وحَمّالٍ، والرِّبِّيلِ، وقيسٍ وطُلَيْحَةَ من بني أَسَدٍ.

وأخيراً وليس آخراً: فإنَّ الإيمان باللهِ، والرِّضى بالموتِ في سبيلِهِ، والتصميمَ على النصرِ، كانتْ أمضى الأسلحةِ التي ضَمِنَتِ النصرَ للعربِ على أعدائِهِم.

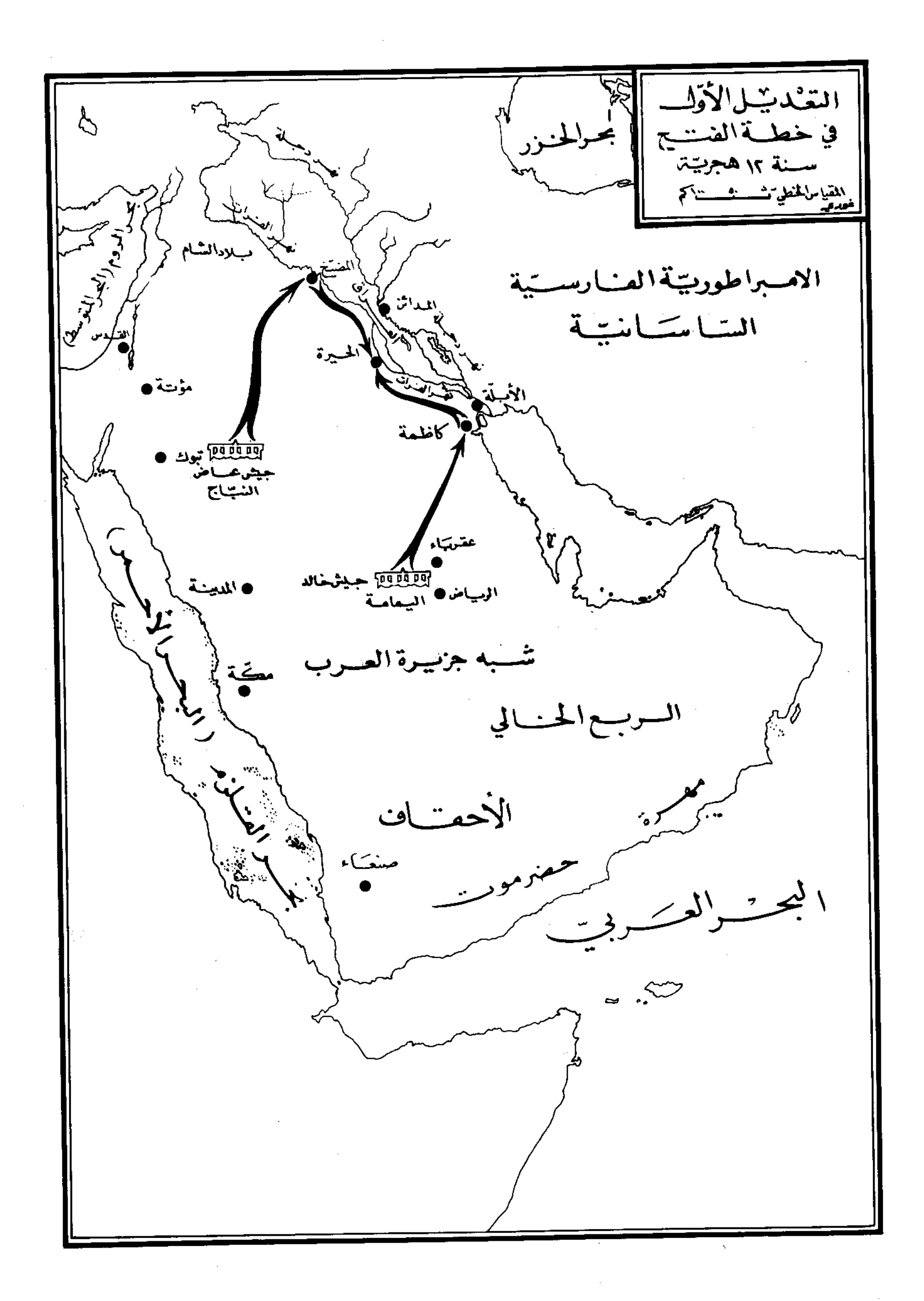
هذه بعضُ العواملِ التي حَسَمَتِ المعركةَ لمصلحةِ العربِ، المعركةَ التي قَصَمَتْ ظَهْرَ الفرسِ، وفَتَحَتِ

الطريقَ لاحبأ أمامَ جحافِلِ العربِ لنَمْضِيَ قُدُماً نحو أَقصى الشَّرقِ.

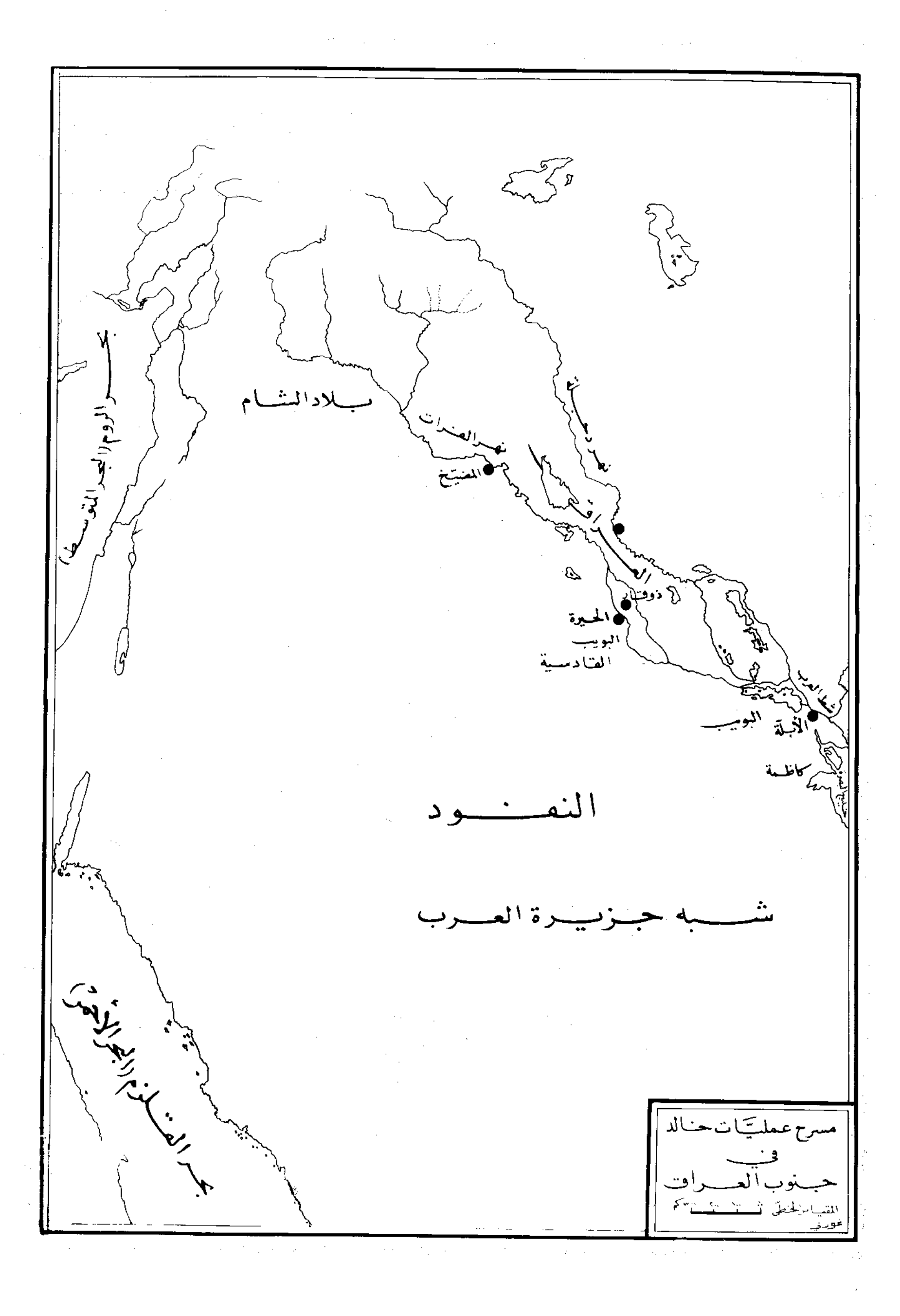
لقد كانتِ القادسيَّةُ فصلاَ من أَروعِ فصولِ المَلْحَمَةِ العربيةِ الكُبْرىٰ.

الفهرس

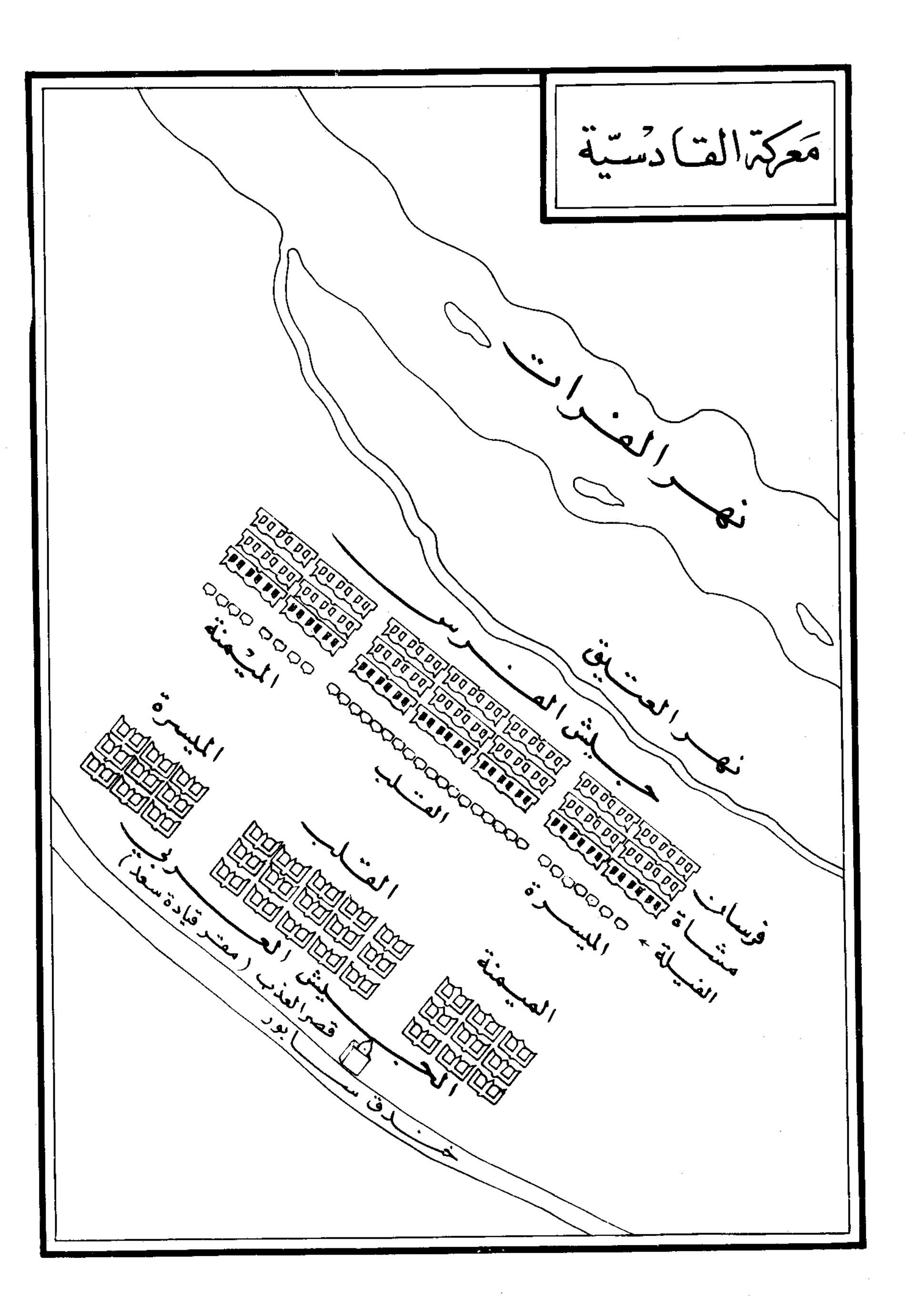
صفحة



التعديل الأول
في خطة الفتح
سنة ١٢ هجرية
بحر الخزر
بلاد الشام
الامبراطورية الفارسية
الساسانية
المدائن
الحيرة
الأبلة
كاظمة
القدس
مؤتة
تبوك
جيش عاص
النبّاج
عقرباء
جيش خالد
اليمامة
الرياض
المدينة
مكة
شبه جزيرة العرب
الربع الخالي
الأحقاف
مهرة
صنعاء
حضرموت
البحر العربي



بلاد الشام
نهر الفرات
المضيخ
ذوقار
الحيرة
البويب
القادسية
الأبلة
البويب
كاظمة
النفود
شبه جزيرة العرب
بحر الروم (البحر المتوسط)
بحر القلزم (البحر الأحمر)
مسرح عمليات خالد
في
جنوب العراق
المقياس الخطي



معركة القادسية
نهر الفرات
نهر العتيق
جيش الفرس
الميمنة
القلب
الميسرة
فرسان
مشاة
الفيلة
الميسرة
القلب
الميمنة
جيش العرب
قصر العذيب (مقر قيادة سعد)
خندق سابور

معارك حربية حاسمة

عربية وإسلامية

معركة

القادسية

١٤هـ / ٦٣٦م

محمد الانطاكي

دار الشرق العربي

بيروت - شارع سورية - بناية درويش

سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات، من الجاهلية الى القرن الهجري الثالث.

١ - معركة ذي قار
٢ - معركة بدر الكبرى
٣ - معركة أحد
٤ - معركة اليمامة
- معركة اليرموك
٦ - معركة القادسية
٧ - معركة نهاوند
٨ - معركة وادي لكة
٩ - معركة بلاط الشهداء
١٠ - معركة عمورية

شارك في تحرير هذه السلسلة
الدكتور صالح الأشتر
والاستاذ محمد الانطاكي
واشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه الا القادرون على الموت في سبيله





معارك حربية حاسمة

عربية وإسلامية

شارك في تحرير هذه السلسلة
الدكتور صالح الأشتر
والاستاذ محمد الانطاكي
وأشرف على إصدارها:
الدكتور صالح الأشتر

سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات من الجاهلية إلى القرن الهجري الثالث.

١ - معركة ذي قار
٢ - معركة بدر الكبرى
٣ - معركة أحد
٤ - معركة اليمامة
٥ - معركة اليرموك
٦ - معركة القادسية
٧ - معركة نهاوند
٨ - معركة وادي لكة
٩ - معركة بلاط الشهداء
١٠ - معركة عمورية

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه إلا القادرون على الموت في سبيله

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
حلب - المسلمية - المنطقة الحرة -